المعبر

رواية

قصي الشيخ عسكر

طبع بعون من إتحاد الكتاب العرب

هذا الكتاب

○ في منتصف الستينات حدثت إضرابات في العراق ، فكانت الأمور قلقة ، فهناك في كربلاء تسير المواكب تهتف ، وهنا في جامعة البصرة يضرب طلبة الحقوق والآداب ..

وخلال العلاقة بين الاثنين . كربلاء والبصرة يصوغ قصي الشيخ عسكر روايته « المعبر » .

دار الجليل

دمشق

- ١ -

كان يوم الخميس أكثر الأيام مصدراً للضجر . ما أن يدقّ جرس الكلّيّة حتى تبدأ محاضرات الفلسفة .. يلوح على الدّرس جفاف وجدل عقيم بين طلّاب وأستاذ ، وتثاؤب من بعض الطّلاب الذين آثروا العزلة ، ثمّ نوم طول المحاضرة .

كثير من طلّاب كلّيّة الآداب القريبين من البصرة في النّاصريّة والعمارة ، يغادرون بعد دروس الأربعاء ، ليقضوا يومين عند أهلهم .. ذلك يعني أنّ حسين يبقى وحده في الشّقّة التي تجمعه مع طالبين ، أحدهما في العمارة ، والآخر في النّاصريّة .. يستطيع بعد انتهاء المحاضرات عبور شطّ العرب واللقاء بها ..

إنها من عائلة محافظة ولا تسمح لها ظروفها أن تلتقي به خارج الجامعة ، فكلّ مناطق اللهو معروفة ومحضورة .. السّندباد، حديقة الأمّة ، مقاهي العائلات ، أما زميلاتها طالبات الألوية الأخرى ، فنطلقن بلا حدود ، وقد ينجرفن إلى أبعد بكثير من أمور معتادة .

في السّنة الأولى يقدمن مرتديات عباءات ، بعد شهرين يظهرن سافرات ، ثمّ يعشقن ، وامتحان نصف السّنة على الأبواب !

كان لقاء التّعارف اعتيادياً .. حسين طالب في كلّيّة الطبّ . في إحدى حفلات الطلبة التي أقيمت بداية العام تعرّفت به . بدا عليها ارتياح وخجل . عيّن مكانها وطلب منها أن تحجز كرسيّاً بجانبها . ظلّ يحدّثها طول الوقت .. نسيت خجلها وانسجمت لحديثه .. بدأت تشاركه كلّ اهتماماته .. عرفت عنه الشّيء الكثير . إنه نجفي ، والده صائغ ، وبالرغم من اتجاهه العلميّ ، فهو يجيد الرسم ، ويهتم به حدّاً يفوق

- ٥ -

تخصّصه !

وبمرور الأيام عرفت الشيء الأكثر عنه ، لكنها وجدت صعوبة في لقاءاته . كلّيته بعيدة عن الآداب ، وقد لا تسمح له ظروفه بعبور الشطّ . إن زميلاتها في الكلّيّة لا يواجهن المشكلة ذاتها . العلوم ، الآداب ، الهندسة ، كلّيات متقاربة ، وكثيراً ما اختلطت الأمور ، وضاعت ، فينفرد في حدائق الجامعة وعلى مساطبها طلاب وطالبات .

انتهت المحاضرات السّاعة الواحدة . كانت متعبة دخلت البيت ، فاستحمت ، وتناولت طعامها ثم أخبرت والدتها أنّها في زيارة إحدى صديقاتها ، وخرجت ..

وفي الطريق ارتسمت في فكرها صور عديدة !

ربما تجد صديقيه لم يغادرا الشّقّة ، فتنسحب بهدوء ، لكن الأغلب أنهما غادرا البصرة مساء الأربعاء ، وربما يتأخّر في الكلية لشغل ما ..

لم تكن هذه زيارتها الأولى لقد ذهبت إليه عدّة مرات الأمر لا يثير استغراباً . لم يحدث شيء عدا ملامسات تسمّيها بعض الطالبات شفويّة ..

إنها معه في شقّة والجّو محاط بالأمان ، حتى إذا شعرب بخدر القبلة ودوارها ، يسارع حسين فيلزم الهدوء ، ولا يتمادى ليجتاز حدوداً أبعد ..

إنه يفكر بالزواج منها فيتحفّظ بعد القبلة وتتحفّظ ..

كانت قبلة حسين لها ثاني قبلة . الأولى من ابن الجيران ، في سنّ الرابعة عشرة تردّد على بينهم . اندفعت باديء الأمر . غابت معه في قبلة سريعة ، وحالت الظروف فلم يلتقيا ، ثمّ رحلوا بعد ، ولم تعد تراه ..

في الأيام القادمة تحفّظت . لم تندفع في مرحلة الدراسة الثانوية حتى دخولها الجامعة . من حقّها أن تحب . كما تحبّ الأخريات ، وحسين هو من لفت انتباهها !

- ٦ -

شفتيها ويديها ، لكن سعاد مع تلك الملامح ، تتميّز بسمات قد تصعب عليه ، وقد يتحول الموقف إلى لغز لا يعرف بعض أسراره قالت ، وهي تلتقط عباءتها :

- عليّ أن أخرج .

قال :

- أنت تقررين الوقت المناسب

شيّعها إلى الباب . قبّلها قبلة قصيرة ، وخرجت بحذر ، وهي تلتفت لتتأكد من خلوّ الشارع !

- ٢ -

استلقى حسين على سريره واضعاً يده اليمنى على جبهته ، كأنه يحصر الأشباح بين أصابعه .. دخان السجارة الخفيف ، يتلوى كراقصة ، ويرتفع إلى أعلى ، فتتبعثر الألوان والأقواس ، والتقعّرات إذ يتخللها ضوء المصباح الخافت .

الدّخان صورة مشنقة أو جندي يترنح من رصاصة لكنه لا يهوي ، أو فتاة عارية ، وجه بهم ، حيوان أليف ، نمر مفترس ..

ها هم أصدقاؤه يغيبون يومين . تذكر نفسه قبل ثلاث سنوات . أحياناً تكون الذّكريات لذيذة خلال دخان متصاعد !

أحب الرسم وهو صغير ، لكن الوالد الصائغ الماهر أراده أن يحصل على شهادة علمية ، فدخل الفرع العلمي ، وتخرج بمعدل عال ، فأشاروا عليه بكلية الطب .

حتى رفاقه في التنظيم اقترحوا عليه أن البلد يفتقر إلى الأطباء ، إذن ليكن الطب !!

عليه أن يطيع فأفكاره تتحدد بأوامر مجموعة ينتمي إليها . هو دون لفكرة لا شيء . هكذا خيّل إليه ، وما زال يذكر ، فمدينة النجف بسحرها لكبير ، وعتباتها المقدسة ، وأناسها الخليطين من ألوان وأشكال ولغات ،

- ٨ -

كان قد وصل قبل قليل من كلية الطب . لاح إرهاق على وجنتيه ، وبدا تعب أسفل الجفنين ، ثم شحوب اختفى بعد فترة مسك كتفيها برفق إلتقت عيناها بعينيه . مرار إصبعه على وجهها ، ثم قبلها قبلة طويلة . كادت تتهاوى على كتفيه .

قال بصوت خافت :

- تعرفين بماذا أفكر ؟

- يوم نتزوّج ؟

- ارسمك !

شعرت أنها تتجرد من ملابسها كلّها تداعت في ذهنها صورة فتاة عارية ، تضع يدها اليسرى على نهديها ، والأخرى .. وتقف أمام رسّام ذي لحية كثّة .

نهض ، وهو يبتسم ، قال :

- لانستطيع أن نفعل أكثر !

عاودها حياء مفاجيء .. تدفّق الدّم في وجنتيها ، وكاد ينفر من وجهها . أطرقت بحياء . أجابته مبتسمة :

- وهل تظنني أمنحك أكثر ؟

ومع رغبتها فقد بدت هادئة . إنها لا تريده أن يحتقرها معظم الفتيات لا يمنحن أكثر من التقبيل ولمسة اليد ، فهي تعتقد أنها إذا تزوجته ، وكان يعرف الطريق إلى جسدها دون صعوبة ، فسيذكرها يوماً بعلاقة ضعف تريد أن تفاجئه باكتشاف جديد تحجبه عنه لمستقبل رسمت معه ملامحه !

نسي حسين متاعب الكلية . كان حديثها يبعث فيه نشوة دافئة ، وهو كأي شاب يلتقي بكثير من الفتيات قد تختلط أصوات وتضيع ، فأية إمرأة تشغلها نغمة معروفة ، تبقى تتحدث عن الزواج منذ أول موعد تلتقيها فيه ، ثم تكرر الكلمة بمناسبة ودونها ، وتصرّ ألّا تمنحك أكثر من

- ٧ -

كانت أول مدينة ينظم فيها إلى حزب يساري يناهض السلطة !

ورغم قداستها ، فهي التي احتضنت ، وبشغف كبير الأحزاب اليسارية قبل مدن العراق الأخرى . ضحك في سره من الهيبة التي يضفيها الناس على أماكن مقدسة بعيدة . حين تكون نقطة في الجوهر ، يزول الخوف والتردد ، وحين نبتعد عن المكان المقدس نهابه ، وحين يلفنا الزمان نهابه أكثر .. هكذا كان حسين يرى الأمور ويفسرها !

لقد اتصل به أبن عمه فقبل الفكرة ، إذ كانت عائلته تتعاطف مع تلك المجموعة . دخل التنظيم ، ولما سافر إلى البصرة انتهت العقبات أمامه ، وعاود نشاطه !

في البصرة اختلفت الحياة بعض الشيء ، تغيير الحياة يضفي على المرء انفعالات جديدة ومريحة . رفض القسم الداخلي الممنوح له من الجامعة . أهله دخلهم المالي مرتفع ، والحجة أن دروس الكلية الطبية صعبة ، والمدينة الجامعية مكان غير منطقي لمن يريد النجاح ، وأخيرا وجد ثلاثة طلاب لا يستطيع أن يسميهم أصدقاء اتفقوا على إيجار شقة في شارع هاديء !

وكانت غرفته مكاناً أميناً . أحدهم لا يتدخل في شؤون الآخرين . قليلاً ما يلتقون ، وحين يلتقون يتحدثون باقتضاب عن شيئين الجنس والسّياسة !

ولم يحاول أن يتحدث مع أحد النزيلين يوما بقضية تخص التنظيم ، فزميلاه يكرهان الأحزاب ، ولا يرغبان في مخاطره يؤمنان بغيبيّات عتيدة الجذور ، ويخشيان سطوة الأمن ، إنهما يرددان مثلاً شائعا « اترك السياسة للحكومة »!

اتفقوا في البدء ألا يتدخل الآخران إذا زارت أحدهم صديقة ، إلا إذا كانت الزائرة عامة وللجميع ..

المهم أن استقلاله بغرفة خلصه من متاعب كثيرة هو في غنى عنها ،

قال حسين :

- الحظّ يلعب دوره أيضاً .

قال العماري ، وهو يتنفس بعمق :

- سيكون في البصرة عزاء لي ، اليوم كله أنظر إلى تكويرة الأفخاذ وفتحات الصدور .. أين أتجه ؟

قاطعه سالم ، وعقّب حسين :

- يبدو أنك تفكر طول الدرس بالسيقان !

- أنا أقول الحقيقة . اعتدت أن أجلس في الصف الأمامي ، وحين يتلي الأستاذ المحاضرات ، وتنسجم الفتيات مع أقلامهن ينسين أنفسهن ، فتنفرج سيقانهن .

- اكتشاف جديد !

- إنّها عوالم جديدة لكنها مختلفة ، صفراء ، حمراء ، خضراء .

قال حسين :

- أيّ العوالم أعجبك ؟

قال ببسمة :

- بعض الدول تنشر وثائقها السّريّة بعد ثلاثين سنة .

قال الناصري :

- أما أنت فبعد ثلاثة أيام .

قال العماري :

- توقعوا أفضل العوالم ؟

قال حسين :

- الأصفر !

قال سالم ، وهو يحرك حاجبه :

- الأحمر !

قال العماري بنشوة المنتصر :

ولم يتذكر يوماً أنه أفلس ، فكان الأب الصائغ يرسل إليه حوالة كل شهر ، عدا ما تمتد إليه يده من نقود الوالدة خلال زياراته للبيت في العطل .

قبل يومين تهللت أسارير سالم . إلتقوا في غرفته ، قال وهو يبتسم ابتسامة رجل منتصر .

- أتعرفون ما يحمله البريد ؟

قال العماري حسن :

- ماذا يكون غير حصولك على درجة امتياز ؟

- هل درجة الامتياز شيء مفاجيء ، بالنسبة لي ؟

قال حسين :

- حدّثنا إذن !

قال العماري حسن :

- يبدو أنه يستخدم أسلوب التشويق .

- اسمعا جيداً .. متصرف اللواء أمر بفتح البصرة القديمة

لم يجب حسين ، وعقّب العماري حسن :

- سنرتاح كثيراً من إغراء الجامعة !

وكان حسين أراد أن يبيّن لسالم أنه غير متأثر لردّه ، سأله بابتسامة :

- ألم تجد صديقة لحد الآن ؟

- المشكلة التي تواجهني أنّ الحقوق تكاد تخلو منهن . ماذا أجيب زملائي ؟ لم أصادق طالبة ؟ سيضحكون مني . هل أنا في مدرسة ابتدائية ؟

قال العماري بذكاء :

- تحرك داخل كلية أخرى . رادار الطبية إلتقط الآداب غير مبال بمحطات التشويش .

- أخطأتما . ناهدة في صفنا نسيت نفسها ، وكانت رجلاها تنفرجان بوضوح ، إلتفت . نظرت جيداً . توقعوا لم أر شيئاً !

ضحك الثلاثة بصوت مرتفع . قال الناصري :

- يبدو أن الوقت ضايقها . فأسرعت إلى الكلية

وعقب حسين :

- يظهر أن الجّو كان حاراً !

قال العماري :

- كانت حامل !

قال سالم بتصميم :

- لا تثرنا أكثر . متى نذهب إلى البصرة القديمة ؟

- أي وقت ؟

قال حسين :

- أنتم تعرفون أني أتأخر في الكلية !

- نحن نغيب هذه الأربعاء

- إذن نذهب غداً .

- أمّا أنا فأذهب الخميس .

قال العماري :

- نحن السابقون !

قال سالم ، وهو يستعد للنهوض :

لكن إحذر أن تذهب الجمعة .

أنا أعرف كلّ شيء .

وخطا نحو الباب ، فجاءه صوت الناصري ثانية :

إذا قدمت إحداهن لك سجارة إرفض .

ابتسم لطيبة صديقه سالم ، وتعالت ضحكات الأثنين ، فأغلق الباب ، دلف إلى غرفته ، لينعم بهدوء معتاد .

انتعش جسد حسين بحمام دافيء بعد المغرب . لم يغب عن ذهنه أن يعتني بهندامه . إنه يرى الأجساد بغليانها وبرودتها بمنظار واحد . هذا الجسد الذي يتقلّص . هذه الدماء التي تخلع الضيق ، والحركة التي تتعرّى عنيفة كالخريف ، تتوقّف في ساعة ، في يوم . أيّة لحظة كانت ثم تبقى بجمودها ، تتفسخ وتتحلل ، وقد تأتي طريّة إلى المشرحة !

مجهولو الهويّة يذهبون إلى المشرحة ، قد يوجد مجهولون ، فهل مَنْ يأتين إلى المشرحة دون انتماء بغايا ؟

أجسادٌ لا يعرف أصولها ، كانت تنبض بالحياة ، امتدت برودتها إلى زمن المشرحة ، وتلاعبت بها أيد غليظة ، وسكاكين حادّة !

وهو يحترم الإثنين ! الحياة ببرودتها ، والحياة ببرودتها الدّافئة !

صفف شعره بالكريم ، وعطر إبطيه برائحة فرنسيّة ، وضع بعضا من نقوده في جيب سترته ، ودسّ بعضها في مقدمة حذائه !

هكذا يفعلون ! الحذر في مدن الخمر والنساء والحشيش .

البيت الأول على اليمين من الشارع المحاذي لجامع « الفقير » مائة خطوة تجد بيتاً تسكنه امرأتان . شقراء وسمراء ، أمّا السمراء فلا ، إنها غير جميلة ، وتعاني من شلل ، اللون الأشقر نادر في بلادنا . حدثه سالم الناصري باقتضاب ، وتمنى له حظاً سعيداً .

أوقف السيارة قرب الشارع ، وعبر إلى الجانب الآخر مشي قليلا ، وعند تقاطع شارعين واجهه البيت ، أبصر امرأة عجوزاً ، لفت على رأسها كوفيّة حمراء في بيت مجاور نادته للدّخول فلم يعرها اهتماما .. ثمّ دلف .

البيت ساحة مغلقة ، ومصباح ينثّ ضوءاً شاحباً ، غرفتان أحدهما مغلقة لاح من شقّ بابها خيال امرأة ، على المقعد المقابل استلقى متحفّزا شابّ أسمر يرتدي زيّ أهل الخليج . حيّاه حسين ، فردّ الآخر بلهجة

خليجيّة سريعة ، ثم استلقى على المقعد مواجهاً الشابّ .

لحظات ، خرجت فتاة شقراء ، قاربت السّابعة والعشرين ، حيّتهما بابتسامة ، واتجهت إلى المبرّدة ، أخرجت منها وعاء ، ارتشفت جرعة ببطء ، وناولت الخليجيّ ، ثم تحولت إلى حسين الذي رفض بابتسامة ، تغلّف اشمئزازه .

قالت ، وعيناها نحو الخليجيّ :

- ديناران ونصف !

سارع الرجل ، ودسّ يده في جيبه ، بينما نهض حسين متجهاً للخارج ، متذكراً حديث الناصري ، اقترب من الباب الذي امترج في دهليزه الضوء الشاحب وظل المصراع ، ما كاد يخطو حتى أحس بيد تمسك بكتفه .

قالت الشقراء :

- أين ؟

- سأعود بعد قليل .

- وقد لا تعود .

- محتمل !

- ألم أعجبك ؟

- السّعر المعتاد نصف دينار !

أفلتت شفتاها ضحكة خافتة . قالت وهي تربت على كتفه :

- يا عزيزي إنه خليجي يدفع ما نطلب منه ، أرأيت زيراً مملوءاً بالعسل ؟ أما أنت فلا ! هات نصف دينار ، وانتظر دورك بعده !

ضحكت بصوت مرتفع ، ثم قالت بهمس :

- على الأقل أنت من لحمنا ودمنا !

دلفت خلف الخليجي ، فتسلل من أعلى الباب ضوء المصباح ، واستلقى حسين على المقعد ، يتأمّل الجدران والسّقف ، ولذّة محمومة ،

هوى بشفتيه على شفتيها بقبلة طويلة . انتظرت فترة ثم سحبت شفتيها قالت :

- أحمر الشفاه يصبغ فمك .

- ليكن ذلك .

كان يعرف تفكير البغايا . إنها تكذب ، وتفكر برجل آخر ، قد ينتظر في السّاحة ، أما الذي يعنيه فهو الوقت ، واستنزاف صراع الجسدين . أيبعث الحياة في صخر وخشب ؟ ليكن الطرف الآخر قويّاً مثله ! الأسد يتلذّذ بصراعه مع أسد ، والأسد يشمئز من صراع غزال ، ويتلذّذ للفريسة ، وعلى الفراش اثنين لا يتخذ الوحي صورة افتراس ، فتخرج المرأة منتصرة ويستلقي الرجل منتصراً .

تراكم الوقت . توهّجت النّار في خشب أخضر . لهاثها يرتفع ، ونشيج مخنوق يطوي صدرها ، فينطلق ، ليذوب بضوء متدرن . استعادت نسخة العملية الأولى ثم برد جسمها ، فهمد الجسدان ، واستلقيا متطلّعين من السقف إلى عوالم تمتدّ ما بعد الجدران .

قدّمت له سجارة ، وأشعلت لها أخرى . سحب الهواء بعمق ، قال ، وهو ينفث الدّخان :

- هل أخرج ؟

- أنت ضجر ؟

- لعلّ هناك من ينتظر .

- دعك منه .

بعد فترة صمت مرّر على جسد نصف مستهلك كفّه اليمنى - قال :

- ما اسمك ؟

- نسرين .

- كردية ؟

- نعم

تدّب في مفاصله ، اعتقد أن الوقت يطول . انصرمت خمس دقائق لا أكثر ، وانفرج الباب ثانية . خرج الخليجي يعدّل هندامه ، وعقاله ، وبين شفتيه سجارة انتشرت رائحتها الأجنبية . أشارت إلى حسين أن يدلف قبلها ، ثمّ دخلت دورة المياه بين غرفتها والدّرج المؤدّي إلى السّقف .

كانت الغرفة مستطيلة ، المصباح الخافت يضفي عليها جوّاً خانقاً ، السرير يسع شخصين ، يغطيه فراش قديم ، وعلى الرّف المحفور في الحائط ، تبعثرت أشياء صغيرة . مرآة ، ورق تنظيف ، ماكنة حلاقة ، وعلى منضدة قديمة علبة سجائر .

سالم الناصري إذا تهيأت له فرصة يسرق ماكنة الحلاقة ، وتعفّ نفسه عن الأشياء الأخرى .

جلس حسين عند حافة السرير . خلع حذاءه ، وتحسّس القطع في مقدمة الحذاء . انقطع خرير دورة المياه . دخلت الشّقراء . ابتسمت إليه ابتسامة خفيفة . استلقت على السّرير . قالت بصوت خفيق :

- هل تقوم ؟

- هل أخرج ؟

- كلّا . ما يضايقك ؟

همّت بخلع ثوبها . مسك يدها . قال بهدوء :

- لسنا مطاردين ؟

- كما تشاء .

رغب أن ينهي العملية مستنزفاً الزّمن . يعلن عن وقت في صالحه ، فيدخل صراعاً مع أجساد باردة ، ليلتصق الخشب البارد من النّار . الصّراع يقتله الوقت الخاطف ليبق عشرين دقيقة على السرير . ليبق نصف ساعة . لن يترك الفراش حتى يتوهج الثّلج بين يديه .

امتدت يده إلى ثوبها . رفعه بهدوء . لاح الجسد يفقد تناسقه من تجاعيد رسمها السهر والخمر . طلب أن تجرّده من ملابسه بيديها ، ثمّ

وكان داخل السّاحة ثلاثة رجال ينتظرون دورهم .

- ٤ -

لم تعتد سعاد منذ الصّغر أن تجلس مع والدها على سفرة الطعام ظهراً يرجع الأب من حانوته في العشار ، فيتناول الغداء وحده سعاد تتناول طعامها بعد الثانية عشرة مع والدتها .

كان قد وصل من العشار بعد صباح اعتيادي ، توضّأ ثم صلّى ، وبدأ يقضم طعامه ببطء . جلست سعاد قرب الباب ، وهي تفحص والدها بنظرات هادئة ..

اعتادت أن تراه - عندما انتبهت إلى الحياة - وهو يأكل طعامه ببطء ، مهما بلغ به الجوع ، وغالباً ما يأكل ورأسه إلى الأمام ، كأنه ينظر باتجاه لا نهائي . قالت الأم :

- متى تسافر ؟

- قد أسبق المواكب فأرتاح من ازدحام الطريق .

- لو كانت سعاد في عطلة لذهبت معك .

قالت سعاد تنحاز لصف والدها :

- في العطلة إن شاء الله .

أردفت الأم تستقل بحديثها :

- أشعر بألم في ساقي ، لعلّ بركات أبي عبد الله ..

قال الأب وهو يزدرد اللّقمة :

- سأدعو لكم جميعاً بالصحة والسلامة .

قالت سعاد مبتسمة :

- وأنا بالنجاح ..

- لن يخيب ابن رسول الله سائله .

لم يغادر الأب البيت عصر ذلك اليوم . حزم ملابسه كعادته حين يسافر كلّ مرّة ، ويستعد قبل يوم . حوت الحقيبة الصغيرة سروالين ،

قاربت سجارتها النهاية . قالت :

- أنت ؟

- حسين

- لست من البصرة ؟

- كيف عرفت ؟

- لهجتك ، ولونك أبيض .

- أهل البصرة منهم الأبيض أيضاً .

- بياضك يخلو من الصفرة .

- من النجف

- موظّف هنا ؟

- طالب

كاد الصّمت يتلقف أنفاسهما مرّة ثانية ، لكن قرعاً على الباب ارتفع ، وصوت امرأة ينادي خارج الغرفة :

- هناك أناس ينتظرون !

نهض حسين . ارتديا ثيابهما . قالت ونظرة صادقة تشعّ من عينيها النرجسيتين :

- أتزورني ثانية ؟

- بالتأكيد

- تستطيع زيارتي عند الفجر !

أردف بعبارات متقطعة :

- سأحاول .. سأحاول . ربما عند الفجر .

طوقته بذراعيها . قبلته على وجنتيه قبلات سريعة . خرج وصوت السمراء يشيّعه باستهزاء :

- يبدو أن أعصاب بعض الرجال باردة . لا تنس أن تتناول حبوباً قبل أن تأتي

جنسية تصور عمليّات متعدّدة !

لم تبدو علامة استياء إلا من بعضهنّ فغادرن الغرفة . طالبة متزوجة من المرحلة الثانوية ، طلبتها منها ، ثم ضحكت ، لقد مارست مع زوجها كل الأوضاع .

عقبت طالبة عذراء باشمئزاز :

- بنات الحلّة مشهورات بالصّلف

قالت جليستها بهمس :

- لوطيات قديمات .

- يبدو أنها طلّقت زوجها حين امتنع عن ممارسة كل الأوضاع معها .

قالت الحليّة تردّ على الهمسات :

- لم تتهامسن ؟ لا تخجلن .. انظرن !

وقفت رافعة الصورة ، وكادت الأصوات تتحول إلى مشاجرة .

كأن حسين اقتحم الغرفة يشنّج العروق ، ويوقف الدّماء في المسارات الضّيقة ، كانت النار تندلع من يديه . صبّ زيتاً وأحرق الجميع .

سرير سعاد انتصب في الغرفة . وجدت نفسها تفتح الذراعين للفارس . إنّها سمعت وأبصرت بلمحة سريعة أوضاعاً مختلفة لتماثيل الأسرّة ، ولا تدري أهو بدافع من عذريتها أم خجلاً من نفسها ، لم تفضّل أن تحتضن حسين ، وهي تستلقي على السرير . سوف تشدّه إليها بيديها ورجليها ، هكذا خُلقت . هي أرض والأرض تحتضن أبناءها . الأرض تحتضن السّماء دائماً والأرض الأم . تذكّرت أنّها مازالت عذراء ، ولقاؤها بحسين سيكون أطول من نَفَسَ غريق !

لم تدركم مرّ من الوقت . انتبهت إلى نفسها . أحسّت برزمة المحاضرة تجثم ثقيلة على صدرها . شعرت بضيق . نهضت إلى دورة المياه . عرفت من الضّوء الخافت في غرفة والديها ، أنّهما يغطّان بنوم

وكوفية ، وعدة حلاقة ، وملابس داخلية . كان يكتب كل شيء جديد في دفتر صغير ، وأضافت الأم :

- فوطة بيضاء لي .

التفت إلى سعاد التي أنهت قراءة محاضرة في الشعر ، قال :

- بدلتان وعباءة

صمتت ولم تجب ، بينما عقّبت الأم :

- العباءة الفرنسية ناعمة اللمس ، لا يخدعك التقليد

- إطمأني ستلبس بنتك عباءة فرنسية .

في الليل بعد أن انتهت العائلة من طعامها ، دخلت سعاد غرفتها تاركة والديها يتجاذبان أحاديث متشعبة . تشتّت تركيزها في تتبع السطور التي تمتد أمامها على ورق المحاضرة المطبوعة بالآلة الكاتبة . جنح فكرها إلى حسين وخدر الأصابع على الوجنتين ولذّة العناق ألقت المحاضرة ، وارتمت على السرير مسندة قدميها على الحافة ..

حين تتزوج حسين تبقى فاصلة الخجل والحرج في الأسبوع الأول ، هذه اللحظة تتكلم بأسلوب واضح ، سترتسم قبلات حسين على فمها ونهديها وفخذيها . ما طعم القبلات الثلاث ؟

الشفتان أعمق ، يتداعى فيهما الخيال ، وتتبرعم ألواح ضوئية جديدة . هناك ألوان لا تحصرها العيون ، تخلفها الشفاه !

النهدان أكثر لذّة ، تختلف الأبعاد ما بين الألواح المبتكرة . المسافات تتلاشى ، وتنزول بين الشفتين والصّدر والأرجل .

ويكون بعيداً ما بين الشّفة والصّدر امتداد صحراء عارية إلا من كثبان الرمل .

في غرفة الطالبات . بعضهن يدخن . المدخنات يتحدثن أحاديث جسدية ، يستبحن الحرية ، كأنهن مع أنفسهن . طالبة مطلقة من أهل « الحلّة »، مواصفاتها معروفة للطالبات والطلاب ، أحضرت مجلة

رقعة في الفراش !

وأظهر لها الضوء الشاحب ترهّل جسد والدها . ظهره المقوس قليلاً . ساعداه الموشمان بعروق خضراء ، وكأنّ جسده لم يتماسك إلا عند الفخذين والسّاقين .

إنّه الآن ليس الشخص الذليل أمام القبلة ، صار كالنسر العجوز المعاند الذي يخرّ من السّماء بعينين متوقدتين !

وحافظت والدتها ، ولو قليلاً ، على حيوية جسدها ، وقد ظهر ترهّل عند القدمين ، وأسفل الرقبة ، وظل جسدها الأبيض البضّ ، ينبض بحيويّة إلى سنين مقبلة !!

وتحرر الجسد من ثقل الهدوء والرّزانة ، وانقلب في عيني والدتها إلى ثورة تجتاح الهيكل !

لم تستطع أن تطيل النظر إلى صندوق الدّنيا . انسحبت سريعا ، وهرولت على رؤوس أصابعها إلى غرفتها .

ارتمت على سريرها ، وهي تلهث ، كانت حرارة تشعّ من وجنتيها المتوردتين ، لكنها شيئاً فشيئاً أطبقت جفنيها ، واستمرّت أنفاسها تتوالى بحرارة !

- ٥ -

لعلّ اجتماعاً في بيت أو شقة محفوف بالمخاطر في ظرف بدأ يبشّر بالعنف .

الشّقّة لا تخلو إلا مساء الأربعاء بعد أيّام حافلة ، وصدر أخيراً أمرٌ يشدّد على عقد أي اجتماع سريع فترة الظهيرة في مقاه مختلفة .

الشرطة بدأت تتحرك بذكاء ويقظة لتوقف مدّ المعارضة . تركت الحبل حتى إذا أوشك أن يفلت منها حاولت شدّه ، وأعقد ما يواجه الشرطة في استغلال الثغرات ، طلبة الجامعات .

ولكي تكون المعارضة أكثر دهاء من رجال الأمن ، وزعوا حلقائهم

عميق . غسلت وجهها بماء بارد تنفّست بعمق ، ثمّ رجعت ببطء .

لم تكد تخطو حتّى سمعت أصواتاً خافتة من حجرة المنام . توقّفت برهة . زادها تحفّزاً لهاث متقطّع . سال لعاب شفتيها واستقرّ في الزاوية اليمنى ، ولأوّل مرّة في حياتها تقرّر أن تقتحم عالم الزّوجين . لا تعرف ما تفعل . ما تقدم عليه . أهو رغبة ؟ أهو انتقام ؟ أهو جنون ؟

نحن نرغب ، فنحن فضوليّون ، ونقتحم فنحن مهووسون ، ثمّ نتألم !

والدتها في حضن زوج ، أمّا هي فلا زالت تنتظر حسين .

طوال حسين مرّت ، جهلت عالم والديها عندما تدخل غرفة نومها تجد الفراش مرتّباً ، والسّرير تغطّيه فرشة ملوّنة ، بوردة حمراء الأوراق ، سواد الدّائرة ، وتكون الأشياء في مواضعها . جمال الأثاث . طرازها القديم ، ترتيب والدتها لقطع الغرفة أشاع في نفسها قداسة لهذا العالم الصغير الذي يضمّ والديها .

تجاهلت ذلك العالم ، لكنها لا تدري لم تندفع هذه الليلة بالذّات لتكشف أسرارا تمتدّ إلى ماض بعيد حيث لم ترَ النّور بعد ، ولم تكن لتخلق ، وهذه الأبعاد تترامى ، ومازالت تمتدّ .

كانت خجلة وخائفة ، لكنّ خجلها أكثر من خوفها ، وبدا لها أنّها تدخل معبداً مقدّساً ، فتغلب الخجل على الخوف ، ولم تفكر بالتراجع !

هذا ما كانت تفكر به ، عندما اجتازت الدّهليز الضّيق إلى غرفة والديها .

لمحت من ثقب الباب جسدين يتقلّبان ، فتغيّرت صور الأشياء ومواقعها !

السرير في فوضى ، والفراش مبعثر . الفرشة البيضاء كادت تسقط على الأرض . إحدى الوسادتين تكوّرت يمين السرير ، وبان ثوب داخليّ مرميّا عند الحافة ، فاختلطت ملابس الزّوجين ، وبدأت كأنها

- اتحدّد بالضبط ما تعنيه بالنسبة لي ؟
- تذهب إلى كربلاء . إنك تعرفها جيدا . تتصل بشخص اسمه دعلج تقول له أنا فرس . وهناك يبدأ العمل .
- من الممكن أن أعرف الآن !
- تسلمه ٥٠٠ دينار ، بدل اشتراكات ، وتشارك في زيارة الأربعين .
- تعرف أني طالب طبيّة .
- هي الأوامر !
- غيابي قد يلفت النظر .
- أحدكم يثق بالآخر أنتم الأطباء . إذهب إلى طبيب الجامعة . قل له إني بصحة مترديّة . أروم إجازة أربعة أيام .
- ألا ترى أنها خيانة للمهنة ؟
- أنت لم تقسم بعد .. ثم .. خدمة المبادىء ليست خيانة !
- ربما يرفض !
- إتصل بي على الرقم ١٢٣٥٦
- هذا كل ما في الأمر ؟
- كلا ..

يبدو أنّ هذا الأسبوع مليء بأحداث وعرة عليه اجتيازها الحقيقة أنّ قلبه لم ينبض بخوف في النجف . كانت عائلته معروفة باتجاهاتها اليساريّة ، فوالده الصائغ يتعاطف مع هذه المجوعة عائلة عمّه تعلن انتماءها . هناك في النجف ينصهر الخوف والتردّد ، رغم تجاوزك لذّة الاحساس بالرّوح التي تنتمي إلى عالم الغيب .

ربّما أتاحت له الصحراء التي تلفّ النجف هذا الشعور ، ربّما هي هيبة مرقد الامام ، ربّما هو المجتمع الواسع الذي يضم جنسيات متعدّدة !

حركة الناس سريعة . الأموات الذين يدخلون المدينة من الألوية البعيدة يراهم يتحركون . المدينة اعتادت الابتسامة وعرفت منظر

على خلايا مصغّرة ، لا تتجاوز الشخصين تحسباً ألّا يقع أحدهم في شرك الأمن ، فينهار تحت التعذيب ، فيدلي بأسماء متعدّدة ..

كانت الحلقة تضم حسين ومازن !

مازال حسين ورفاقه يتذكرون السيارة « الفولكسواكن » السّوداء ذات الرّقم « ٧٧٨ » التي عرفت من قبل . سيّارات بعض الأقضية ليست مجهولة . قد لا تكون أعصاب إنسان من لحم ودم ، أما أن تكون الأعصاب أصلد من نار وبرد في وقت بطيء بين الحياة والموت ، بين إحساس ولا إحساس ، فتلك مسألة لا يستطيع أن يفسّرها وقد يتجاهلها .

اجتاز حسين ومازن الرصيف المحاذي لسينما الكرنك . عبرا منجهين إلى مقهى على الرّصيف يقابل معاونيّة شرطة « العشار » مكان لا يلفت النظر ، ولا تتوقع الشرطة أن يجتمع إثنان في مقهى ، كلّ ما في الأمر أنهما انزويا على المقعد الخشبي ، وطلبا شاياً . قال مازن :

- سنتفق حول سفرك !
- لا مانع إذن !!
- هل سمعت بفتح البصرة القديمة ؟
- نعم . ذهبت أمس كنت أودّ لو كنت معي !
- خذ حذرك إنهم يحاولون بأيّة صورة أن يلقوا القبض على أيّ منا بأيّة حجة .
- لعلهم لم يرسموا حولي علامة استفهام .
- ولعلهم رسموها .
- الآداب والحقوق على وشك القيام باضراب . لم يصدر السماح بفتح الحارة دون قصد .
- متى تتوقّع إضراب الكليّتين ؟

أنهى مازن ما تبقى من الشاي بجرعة سريعة . قال :

- بعد زيارة الأربعين .

عذراء .

ابتسم مازن . قال بهدوء :

- اعتمد عليها ببعض الأمور الآن !

ثم غيّر الحديث :

- اعتقد أننا نواجه امتحاناً صعباً . في البداية مضمون الأسئلة غير واضح . البحث عن مفتاح يقود إلى حل منطقي .

غادرا المكان ، وهما يتحدثان عن امتحان صعب . اجتاز الرصيف إلى « الباورهوز » الذي تطل منه دائرة إسالة الكهرباء والماء ، ثم عبرا الجسر إلى سينما « الحمراء » فهناك عادة تكون الشوارع هادئة .

انعطفا إلى شارع يخلو من المارّة عدا بعض الأطفال الذين تفرقوا مجموعات مجموعة صغيرة ، لا تبعث الصخب ، ومارسوا على الأرصفة ، ومنتصف الشارع لعبة كرة القدم .

انحنى مازن يشد حذاءه المرتخي . دسّ يده في جيب سترته الدّاخلي . رفع رزمة أوراق . قال بهدوء :

- اخفها بسرعة .

كانت الأوراق بحجم بطاقات دعوة العرس . إنها تعني دعوة الناس لأمر ما لعله الاضراب . اختطف حسين الرزمة ، وواصل مازن :

- لعلك لم تنس بعد . قبل قليل حدّثتك عن سعاد . إنها تستطيع دسّ هذه الأوراق في كتب الطلاب .

- قد تمانع

- أرجعها إذن غداً .

أشرف الرفيقان من شارع فرعي على شارع « ١٤ » تموز أكد مازن تعليماته . صافح كل منهما الآخر ، واتجه مازن إلى « الخورة » أما حسين ، فحثّ خطاه إلى الشقة ليخلو قليلاً مع نفسه .

الموت ، ودخول الجنائز . لم يعد يخيفها شيء . **الموت حياة جديدة** . أوهي اللا شيء ، وبين الشيء واللا شيء ، جسر قصير ، وحقيقة تبعث الأسف ، أن تتحول فيها .

الآن يكلّف بمهمة تختصر المسافة بين البصرة وكربلاء تختصر الزمن بين انتمائه الأوّل والمهمة التي ينفذها .

كان يتذكر بوضوح عصر يوم قبل امتحان درس الحيوان ، وقتها يذهب كعادة الطلاب إلى المقبرة ، إذ يبسط الهدوء ظله . يستلقي في قبر قديم ، وينعم بقراءة لذيذة . أطراف مقبرة الغري تجذب الطلاب الباحثين عن الهدوء . إنهم أحياء يتحركون . ربّما عاد الأموات إلى الحياة ، يلمّ الميت عظامه فيكتسي لحماً .. الدفء .. الحرارة يشعّان من الحفر ، والحفر وحدها تنبض بالحياة !

كان ابن خاله يدرس بقبر قديم قريب منه . حين أوشك الغروب على الهبوط ، ولاح قرص الشمس ، يتورّد ثم يصفرّ بدءا يتحدثان . منذ ذلك اليوم ارتبط حسين ..

وعادت الحياة تدبّ في المقبرة ، كانت تلملم الشظايا والعظام ، وضوء الشمس ينكاثف إلى الدم .

قال مازن ينهي فترة صمت قصيرة :

- كيف هي علاقتك بسعاد ؟

- أنت تعرف !

- تعرف أفكارك السياسية ؟

- بل تحمل الفكرة .

- هل فاتحتها ؟

- إنها تتعاطف .

أردف ليطمئن رفيقه مازن :

- بعد الزواج يتغير الأمر ، الفتاة لا تستطيع السير بإرادتها إن كانت

المصطبة فارغة . كان البستاني يغادر البقعة البعيدة عن مكانهما . شبك حسين أناملها . قال :

- هل أنت سعيدة ؟

- تعرف شعوري

صمت قليلاً . قال :

- ستمر الساعتان بدقيقتين .

- ما أثقلها لو كانت محاضرة !

قال ، وهو يبتسم :

- نحن محاضران لكننا تلميذان وأستاذان

قال تسحب يدها برفق :

- فاجأتني زيارتك

- فعلا !

- هل أنت مريض ؟

- كلا . سأسافر

- ماذا ؟

فلتت أصابعها لتطوق كفه ، كأنها خشيت أن يفلت منها . عقب بحماس :

- سأذهب إلى الزيارة

- قلت لي أنك لا تؤمن بالمسائل الروحية !

- المسألة تختلف

- علي أن أعرف

- ضروري

- أنت تهمني . أريد أن أعرف كل ما فيك

- غاية ما أفهمه من المسألة أن هذا الحشد يمثل جوهر المئات . جوهر أغلبية عاشت محكومة ألف سنة ، وأكثر ، وأنا منها .

يوم السبت كانت الاجازة بيد حسين .

لم يكلف الدكتور نفسه مشقة السؤال عن المرض ، فهو بنظره زميل مهنة ، وغاية ما بيديه أن التوعك أتعبه ، وإجازة أربعة أيام تكفي .

طوى الورقة وخرج قاصداً الآداب . كان يفكر بسعاد ويحدد مكان اللقاء . من السهل أن يختار أي مكان على مصطبة وسط حدائق الجامعة . الأماكن النادرة المنزوية تغص من ساعات الصباح الباكر . ومكانهما المعتاد هو وسعاد زاوية المثلث المقابل للجامع الصغير .

مكان هادىء يشرف عليه سياج القسم الدّاخلي للبنات ، وتحجبه عن الشارع العام أشجار الأثل والصفصاف الكثيفة ، وحين يرى الطلبة المتجولون عاشقين منفردين يجرّون الخطا مبتعدين عنهما .. أما البستاني فاعتاد أن يدير لهما ظهره ، ويمضي بتصفيف الحديقة ..

إنه يشعر بنشوة وخفة ، وكأنه يهبط من مظلة . امتناعه عن التدخين صباحاً على غير عادة الطلبة يزيده انشراحاً ، فهم ينعمون بمهدىء مع الأنفاس الأولى بعد النهوض أما حسين فسجارة الصباح تزيده قلقا . بداه ترتجفان مع النفس الأول . حالة لا يعرف سرّها . لو دخن سجارة لأحسّ بصرح السعادة ينهار ، وضربات القلب تزداد ، وثقل كغول يجثم على صدره .

كان يحفظ جدول محاضرات سعاد . يوم السبت من العاشرة إلى الثانية عشرة وقت تفرغ . إنها لن تتوقع زيارته اجتاز المدخل إلى القاعة . الباب منفرج ، وأستاذ بدين أصلع يرتقي المنصة . اقترب من الحائط ، فأبصرته ، ارتبكت ثم عادت إلى المحاضرة .

حضوره يوم السبت مفاجأة لها .

دقائق كانت ثقيلة ثم دقّ الجرس . اختصر الطريق من باب الآداب الخلفي إلى الممر الضيق بين الصفصاف . تهلّلت أساريرهما إذ أبصرا

تفرست عيناها في وجهه توقف يزدرد ريقه . لم ترمش عيناها المبحرتان في عينيه . كان كلامه ينفذ إلى أعماقها . إنها تعرف حسين وتحبه بعمق . إنه جديد كل يوم حبها جديد ، وعميق عمق نظرته إلى الحياة . قد لا تبدو تفهم بعض كلامه ، وفي الحقيقة تفهمه جيدا ، وتدرك مغزاه . حسين مرآة تعكس أعماقها ، ومسارات الدم في عروقها .

سحب نفساً عميقاً . واصل كلامه بانفعال :

- الحشد الذي يخرج يبحث عن الحرية . رغبته قوية في أن يحكم نفسه .

- أنا معك لكن هل يتحقق شيء ؟

- هل رأيت رجلاً يضرب رأسه بمدية ، وآخر يضرب صدره بكفيه ؟

- أنا ضربت نفسي .

- شعور بالراحة . أنا محكوم أضرب نفسي فأرتاح !

- أتتحقق الرّاحة من غير غيبيات ؟

حديث حسين يبعث الرّجفة الخفيفة في كتفيها . لبست السّواد في محرّم وهي صغيرة . ولم تفهم تفسيراً لتصرّفها حتى إلتقت بحسين . أحبّت لحديثه محرّماً أكثر من أي زمن انقضى ، كانت تجهل فيه نفسها . تجهل لم تبكي أمها ، ويحزن والدها ، وتلبس الملابس السّوداء ، والناس يغلفهم حزن متفرّع الموارد ؟

ودّت أن تكون أيام السّنة كلها كربلاء

مازال حسين يرجعها طفلة تطوف حلقات النسوة واللاطمات ، ويعيدها إلى الجامعة بصورتها الأولى . تمنت أن تذهب إلى البيت وتدير الساعة إلى اليوم العاشر وتلبس السّواد ، وتلقي نفسها بين أحضان فارسها .. ها أنا إحدى البطلات . لقد شاركت في المخيّم !

إسترسل الفارس بحماسه المعتاد ، وبصوت خفيق :

- قد تجدين في الجموع الوجودي ، والشيوعي المتديّن والعنصري .

الحسين يصبح في نظر المختلفين رمزا .

وسكت حسين ليشبك يديه بقوّة فتصدر طقطقة أصابعه . أحست أنه ينتقم لها . طلّاب في مرحلته يعتقدون أنّهم بدخولهم الجامعة ارتفعوا كالنسور ، وأطلّوا بترفع على مخلّفات الماضي . الهوّة تفصل بينهم وبين الموتى . لا يعرفون من هو الميت ؟ يأنفون من البكاء . عظمة الموت تتجسّد في جدث اجتاز التفسخ والنسيان إلى زمن نهض فيه الكافر والمؤمن . تكاثفت فيه الأضداد واتجهت إلى ضريحه ، لتهتف وتتحدّى ، وتبحث عن الحرّيّة !

ها هو حسين فارسها حملها بين ذراعيه . إنه المنقذ الذي اختارته ، وتحققت في ذاته من بين وجوه مختلفة الشكل واللون . قالت تتصوّر نفسها في حضنه :

- أتخبر أهلك عني ؟

- إنهم يعرفون !

- أيسرهم أن يسمعوا عني ؟

- ستتخرجين العام القادم . أنا مازلت في الطبيّة . قبل نصف السّنة ينتهي كلّ شيء . الخطبة وعقد القران .

ضغط على يدها ، أفرد سبابته ومررها على شفتيها ، داعب خصلات شعرها التي انسدلت على صدرها . قال بلهجة فيها رجاء :

- أتؤدّين لي خدمة ؟

- لن أمانع

حاول أن ينسحب إذ رأى المهمّة أوسع من قدرتها . تخيّل أن معركة بين سعاد وعشر نساء ، العدد ينتصر والقوّة لا تتصدى !

الآن لعلها تفقد ثقتها فيه ، تجرأ ثم دخل الموضوع :

- أوراق صغيرة دسّيها في دفاتر الطلاب

تشنجت يدها بين أصابعه . ارتفع الدّم في وجنتيها . كانت مفاجأة .

حولهما !

تمعّن في وجهها . همس في أذنها :

- سعاد !

تهادى رأسها على حافة المصطبة الخشبية ، وانغرزت يده اليسرى في شعرها تعبث بخيوطه الناعمة . هوى بشفتيه على شفتيها ، وكانت قدمه تضغط مقدمة حذائها ... ثم .. ابتعد عنها ..

نهضت ، وهي تعدّل ثوبها ، قالت :

- سأذهب

- ألم أقل ستنتهي الساعتان سريعاً !

رفعت كتبها عن المصطبة . قالت :

- خذ حذرك . لا تندفع كثيراً ..

- ستجدين حسين هو حسين في كربلاء كما في البصرة !

ارتسمت أمام عينيها بيوت النجف وكربلاء . حين تتزوج حسين لن يعانوا مشقة السفر والمبيت في الفنادق إذا ما سافروا فبيت سعاد يستقبل ضيوف البصرة ، وأم حسين ووالده يرحّبان بوالدها ووالدتها ، ويفرح الصغار بالضيوف القادمين . أما أمها فتظل ما تطيب لها الاقامة حتى تحنّ إلى بيتها !

إنها تستعرض شوارع النجف التي شاهدتها على عجل السور القديم التوسع الجديد . بيتها سيكون في الحيّ الجديد . سيارة تقف أمام الباب الأزرق . بيت الدكتور حسين زوج سعاد المدرّسة .

ليلة يبقى حسين خفيراً في المستشفى تنام عند أهله وتتحدّث إلى أمّه .

خطا الاثنان نحو الممر المعبد في المنعطف قرب الجامع . كان البستاني يقضم الخبز والخيار ، ويتحدث لزميله بصوت عال ، وهو يزدرد اللقمة :

وقبلتها . همس والدها في إذنها :
ـ النقود تقلّ العقد . هيّا انهضي إلى البيت .
ـ كلا .. ستقتلني في البيت !
قهقه الجميع بصوت عال ، وضحك الطلاب لبسمة ارتسمت على شفة الأستاذ . لم تسمع ما قاله الأستاذ من طرفه ، فالطلاب يضحكون لأية نكتة تافهة . المهم أنهم يضحكون خلال المحاضرة . النكتة نفسها لا تثيرهم في الخارج ، لكنهم في الصف يضحكون لأقل بادرة !
كانت هذه آخر محاضرة انتهت الساعة الثانية بعد الظهر !
دخلت غرفتها ، ثم غيّرت ملابسها ، ولبست ثوباً بيتياً فضفاضاً يكاد يظهر إذا تعرّضت لضوء قويّ بعض تكويرات جسدها . ألقت الأوراق الممنوعة قرب كتبها . جاء صوت أمها من الساحة !
ـ سأصعد إلى التنور
ردّت الباب بحذر . تناولت الأوراق . عدّت البطاقات وجدتها عشرين بطاقة . دعوة الطلاب والطالبات في كلية الآداب إلى إعلان الاضراب الذي تقوده كليّة الحقوق . رفعت البطاقات .
إلى صدرها . شعرت بقطعة من ذات حسين ترتسم في الأوراق . إنها تحس طعم لمساته على السطور المكتوبة بآلة طابعة . لِمَ تغار من الأوراق الصغيرة . لمسات حسين مطبوعة على شعرها وخدها ويديها هذه الأوراق كانت قبل فترة قصيرة بين يدي حسين شعرت بتأنيب ضمير لانها لم تستطع أن تدسّها بين كتب الطلاب اقنعت نفسها بعذر سطحي . تخيلت بعض الطلاب لم يغادروا القاعة ، ولمجرد أن أعلن الجرس نهاية للمحاضرة ، حتّى غادرت إلى غرفة الطالبات ، واسترسلت بحديث مع فتيات لم تشاركهن من قبل .
كانت ترغب في الهرب . أن تتلاشى في حسين ، حين يكون قريباً منها لا ينفذ إلى أعماقها الخون . الآن تنوء بحمل تشعر أنه أثقل من

ـتي أغيب عن العمل

لأول . اتخذت سعاد
ان باب القاعة مغلقاً
ب يفصلها عن ضجّة
ن الخوف والمرارة .
طة الممتدّة أخذ شكل
!
، من ثقوب الشبابيك
يتلقاها الأب ، الأمر
فقان مفاجيء .

مركز وسط نظرات
على الجدران آثارا
لابس فتيات داخليّة
، التعذيب . استقبلها
الشّارب :

ض صلبة ، وكانت
ها ، أو يعلن براءته
ا فابتسمت بعطف

لم يعرض عليها عرضاً خطراً . لِمَ هذه اللحظة بالذات
حك . قالت وشبه كابوس يخيّم على صدرها :

خرج الطلاب ويتركون كتبهم .
ر ؟
، ولا تبقي في دفترك إلا بطاقة !
من جيب سترته الداخلي . أبصرتها باشمئزاز ، تحوّل
ة كريهة تجمّد حسين أمامها . أتكرهها ؟ أتحقد ؟ هذه
ـ لخطر متربّص . ربّما القتل ، أو السجن ، سعاد دون
شلول . كان يضع القصاصات بين فخذيها المتلاصقتين
. قال :

ن امرأة ؟
قميصها . بانت لعينيه قطعة حمراء تشدّ النهدين ،
سحبت الأوراق ، ودسّتها في صدرها ، ثم زرّت

أشعرته بعظمتها ، فهي معه ، وتشدّ على يديه بحماس
ره بخيبة أمل . ابتسمت . مسحت صدرها قالت :

ساعتها . قالت :
المحاضرة !
حثان عن نهاية سعيدة . أنصتا لوقع أقدام تبتعد . أرجل
ر الصفصاف واليوكالبتوس . تطلع حسين إلى المكان
عاشقين عن بعد ينسجمان بحديث ، ولا يبصران ما

وزنها . أرادت بحديثها مع الطالبات أن تهرب من الأشباح بأية كلمة تفصل بينها والصمت . لتتحدث عن الكتب ، نظام الجامعة كيف تتطور الصورة بعد عشرين سنة . أتبقى الجامعة في شطّ العرب فترة طويلة ؟
ثم .. يدقّ الجرس ، وتعود ثانية إلى القاعة ولا تفلت من صمت شرس !
في الجامعة وطول الطريق عانت من ثقل الأوراق في البيت كانت مظلّة خفيفة تحملها بعيداً فوق الغيوم ، فتبصر العالم في أعلى الأوراق تخترق سقف الغرفة ، تعبر المسافات ، وتثقب الجدران ، فتحلق بها بعيداً ، ليصبح العالم تحت قدميها الصغيرتين . العالم كله كرة صغيرة . تديرها كيف تشاء ، وتبصر ألواناً لا تفصلها أنهار ولا بحار . يغطي اللونان الازرق والأبيض الأرض بقية الألوان تلاشت ، وهربت من الموشور . اصطدمت بالغيوم المطوّقة الأرض ، وارتدّت إلى السماء .
إنها لن تخاف ، وهي في غرفتها تبصر كل شيء ، أدقّ من صمت ، وأحدّ من عين صقر . حملت ملزمة الأدب العربي ، والأوراق الممنوعة ، وصعدت الدّرج . النار تندلع من التنور بلسان طويل ، والدّخان ينتشر بين موجات الهواء الخفيق . كوّرت الأم العجين . قالت تشمّر ساعديها :
ـ ملابسك خفيفة . سيصيبك برد !
ـ لا تخافي
ـ هل لديّ غيرك ؟
ثم أردفت بحسرة :
ـ لو لم يكن أبوك يحبني ، ولو لم تكن « أم حسن » لتزوّج !
كانت تعرف أن أمنها لا تعزو عدم زواج أبيها من امرأة أخرى إلى حبه ، وقناعته فقط ، بل إلى فضل « أم حسن » العرافة التي تزورهم زيارة الهلال . قالت شبه محتجة على كلام والدتها :

- من الساعة الصغيرة إلى السيارة الكبيرة !

قال العماري :

- أصادفك أمر مشابه ؟

- لكنها قالت لي زرني في الفجر .

ضحك الناصري حتى كاد يستلقي .

قال العماري :

- منتهى التفاني ! تريد أن تمنحك نفسها بحرارة .

قال حسين :

- لم أتوقع أن انتصر في جبهة ميئوس منها .

قال الناصري بمرارة :

- إنها مسألة حظ . أنت في الطبّية ، وأحببت في الآداب ، ثم ذهبت إلى مكان أبعد ما يفكر فيه الانسان بالحب ، فأحبتك امرأة !

- مجرد حظ !

قال العماري بلهجة تنم عن تفكير ساذج !

- أو لعله يملك خرزة !

قال حسين ، وكان يهدف إثارة الاثنين :

- كل الأحوال صحيحة !

واندفع الناصري !

- يقولون حين تتضاجع حيّتان ألق عليهما عباءتك ، فينفصلان ، ويسقط سائل الذكر على الأرض ، إذا رفعته بعصا يصبح خرزة تسحر النساء .

قال حسين مقاطعاً بمرح :

- وإذا تركته يصبح بسكويت !

تضايق الناصري قليلاً . أكمل وعيناه إلى العماري :

- يصبح جوهرة ثمينة !

ذكر !

ان وهو تراب ؟

مرتجفة الأوراق . رمتها في لهب التنور . ماكادت تلقي

ى ارتدت من شدّة الحرّارة !

ها ؟

!

دها في التنور . أخرجت رغيفاً ألقته في طبق من

ت سعاد قطعة منه ، وقضمتها ببطء . قالت الأم :

لقلت لك كلاماً عن الزواج والخبز !

د ؟

الحكاية

ف الأول تموت زوجته !

مضغ . عادت بابتسامة متعبة :

الحكاية تخص الأولاد !

وقالت :

ابنتي ابتكرناها نحن نساء الطراز القديم !

قال حسين ، وهو يهم بمغادرة الغرفة :

- في النجف تكثر الحيّات بين المقابر !

وخطا نحو الباب ، ثم إتجه إلى غرفته . كان يبتسم في سرّه ، كأنه يشعر بنشوة النصر . لم يعرف سر ابتسامته . أهي الخبث ؟ أتكون إشارة نصر تميّزه على الأقل عن طلاب عاديين ؟ أهي الطيّبة التي تتغلغل في أعماقه ؟

وتمعن في وجهه أمام المرآة !

وجه مدوّر . عينان خضراوان . أنف عريض . شعر ناعم ينحدر بشكل قوس على الجانب الأيمن . اقتنع أن حظه المحسود عليه مع الفتيات يرجع إلى وسامة وجهه وبياض مرغوب يميز شباب النجف عن ألوية العراق !

تحسّس نقوده باهتمام عدّل هندامه . أطفأ نور المصباح ، واجتاز ساحة البيت الضيقة ، وتوقّف لحوار كان يخصه بين الناصري والعماري . من عادته ألّا يتدخل في شؤون غيره ، وألّا يتلصص ليسمع أخباراً عن الآخرين . إلا أن الأمر لحظتها كان يخصه . قال الناصري بلهجة تحريضية :

- أمامي وأمامك تظهر الوطنية . لقد أحس بالاضراب فحصل على إجازة ليهرب .

- الرصاص ، السجن . الضرب ، لينهزم من الجحيم .

- حين تحدّث عن زيارة الأبعين شككت !

- هل تتوب « نصرة من فسادها في البصرة »

- لماذا لم يمنحني الدكتور إجازة ؟!

- إنها الوساطة !

- أتعتقد أنه يستطيع التهجم على الدولة لولا أن ظهره محميّ ؟

- أحس بالنار فعجل الهزيمة !

صمت الاثنان فجأة كأن لحظة رهيبة خيمت على الغرفة . ابتسم في سرّه ، وكانت ابتسامته معفّرة بمرارة . خالطت ريقه ، وحاصرت أنفاسه . ردّ الباب وراءه بعنف ليهزّ الصمت المطبق . وينبيء الاثنين أنه لم يغادر الغرفة إلا هذه اللحظة الواهية !

★ ★ ★

عندما وصل وجد البيت فارغاً . يبدو أن برودة الجو الملحوظة تلك الليلة ، دفعت البصرة القديمة إلى أزمة سياحية ، إنّها رتابة الأشياء المبعثرة ، والأضواء الخافتة التي تنبعث من مصابيح تلبدّت كالقنافذ .

قالت بشبه عتاب !

- أين كنت طول هذه المدّة ؟

قال وقد إتخذ مكانه على حافة السرير :

- صعوبة الدروس ، وسأغيب أياماً أخرى .

امتدت يده إلى جيبه . أخرج ورقة فئة دينار صدت يدها يده . ردّتها بعنف . قالت :

- سأكرهك إذن !

دسّ يده في جيبه ، عقبت بينما راحت أناملها تداعب شعره :

- لم تقل لي أين تذهب ؟

- إلى الزيارة !!

سهمت عيناها تسمّر فمها عن علامة استفهام :

- أتدعو لي هناك ؟

- لكل الناس .

كان يهمّ أن يقول « وسعاد » لكنّه لم يرغب أن يدور اسم سعاد على لسانه في هواء متعفّن . خالطه ، شعور بالذنب والغثيان . رفعت وجهها إليه . قالت :

- ما بك ؟ إنك غائب ؟

- أفكر فيك !
- أين وصلت ؟
- أستطيع أن أراك ثانية ؟
- مكتوب علي أن أظلّ هنا .
- لعل الشرطة تمنع الزّيارة !
- أزورك أنا .
- أرأيت المنطقة ؟
- حدّدها لي .
- شارع السعودية . مجاور دائرة أجهزة التلفونات الشقة الصفراء
- الأرضية ؟
- زرتها من قبل ؟
- كلا ، لكني زرت الشقة المجاورة !
- أكنت تخرجين كثيراً ؟

أجالت نظرها في الغرفة . قالت :

- هنا تعدّ القوّادة علينا الفلس !

شعر بضيق ينتابه . تنفس بعمق . قال :

- أتمنى أن أفعل شيئاً ما .
- أتضجر إذا زرتك كثيراً ؟
- لو كنت وحدي لأبقيتك !

قالت وخيال من المستحيل يجنح بعينيها المتعبتين :

- أخرج يومياً إلى السوق . أشتري ما نحتاجه . أطبخ الطعام فتأكل براحة حين تعود ..

توقّفت عن الكلام ، وشفتاها تبحثان عن تعبير . كان حسين يعرف أن هذه أمنية كل إمرأة ، إذا خسرتها تفقد إحساسها بالأنوثة . قالت بلهجة يخالطها حزن وندم :

- إنه المقدّر ولا فرار منه .
- لن نفلت من المصادفة .

قالت ، ولم ترغب أن تهرب من عالم صنعته قبل قليل :

- لكن احذر شيئاً واحداً .
- أن تحرقي البيت .
- أن تشكّ فيّ .

ثمّ واصلت بمرارة ويأس :

- أعجب من النساء المتزوجات كيف يخنّ ..

تضايق حسين من لهجتها . قارئة الفنجان تعلم الغيب ، وتحذّر من عاقبة بعيدة ، ولمس في حديثها عن الخيانة نغمة تمسّ بها سعاد دون أن تدري . إنها تفكر في بيت ومطبخ وأطفال . أشياء عادية محرومة منها . تعجب كيف تخون امرأة متزوجة . أما الأمر فطبيعي لربّة بيت وأطفال اجتازت رحلة الحاجة إلى البيت والمطبخ والأطفال ، وتطلّعت إلى شيء خارج عن إرادتها . شيء ربّما يكون بعيداً أو قريباً منها وهي لا تعيه .

عندما دخل الكلية فكر في فتاة تصبح زوجة ، ثم اطمأن من سعاد وهويتها . هل يتوقّف بعد هذه المرحلة ؟ إذا توقف ينتهي التاريخ والأرض مستمرة الدوران ، فلن نرى نهاراً واحداً أو ليلاً واحداً ، ولن تبدأ الحياة من لبّ الليل ، ولم تبدأ الحياة من لبّ نهار . الدوران حياة . ما يضرّ سعاد أن يلتقي لفترة بامرأة ؟ قد تكون نسرين . أو أي اسم آخر يمنح الحيرة .

قالت وابتسامة عريضة تغطي سؤالاً محرجاً :

- ألك صديقة ؟

استغرقته دهشة مفاجئة . قال :

- شأن الطلاب الآخرين !
- أهي من النجف ؟

صفحة السماء ! لو مسكنه لمزقته ! النجمة الصغيرة عرجاء تتأخر عنهن مسافة ، يتعبها المشي والبحث ، وتؤلمها ساقها ، ويبقى طالب ثأر يبحث عن القاتل .

وقديماً قالوا .. أمّ القاتل لا تنام ، أما أم المقتول ، فتنام . إنه متعب ، وثقل يربط جفنيه ، لكن قد ينام فلا يشعر بلذّة .

متى يتواجه الاثنان ، القاتل والمقتول ، على أرض لا تدور عند المواجهة ؟

قتيل واحد يركض خلف قاتله ، فالطريق يحصر العربة بين فكّي القضبان ، ويحميها من الشطط في وحل الصحراء ، وهذا الزمن يتبلع برمالة القوافل ، فتضيع في الصحراء على مرّ العصور ..

ومن بعد يهيج وحش فتصفر القاطرة بعينيه ، ويجمع قوّته ، فيقترب منها ، وتكبر إذ يقرب ، لكن الوحش لا يتراجع ، فيضرب رأسه بالقاطرة ، ويبقى الهيكل الحديدي يسري ، والوحش القتيل يتخبط في دمه والقاتل يستمر في السير .

توقّفت السيارة التي أقلّته من الديوانية في ساحة الميدان ـ النجف مدينة لا تنام . المقاهي تعج بالرّواد ، والشّوارع لا تجمد فيها الحركة . الداخلون يتسرّب منهم الخوف . وتبقى تشخص لعينيه عظمة مدينته التي تخفي في شوارعها ومقاهيها الأضداد .

النّاس اعتادوا الحياة والموت . تدخل صناديق الخشب صامتة ، لا بكاء ، ولا صراخ ، ولا ضجة . الجثّة تترك هناك في بلدها مراسيم الحزن والحركة ، وتتسلّل طول الطريق . فتلقي بالعالم بعيداً بعيداً .

أنفصل خدّه عن الزّجاج البارد . نزل ، واجتاز السّور القديم . اعتاد أن يدخل البيت بهدوء . أهله نائمون ، الصباح يلتقون به ، فكلّ مرّة يجدونه دخل البيت بصمت ، ولم يثر ضجة في الليل .

سيعاتبونه فقط لأنه لم يجلب هدايا من البصرة !

- كلّا ..
- أهي جميلة ؟
- تستطيعين أن تخمّني
- إنها جميلة ..
- كيف عرفت ؟
- ذوقك لا يختار إلا جميلة !!

ابتسم لا عن رغبة ، ودّ أن ينصرف الحديث إلى وجه آخر قال :

- ربما .. الجمال نسبي . ما أراه جميلاً قد ترينه غير جميل ، وقد يتحقق النقيض .

وتوقف عن الكلام . تذكر أنه يتحدث مع امرأة عاديّة قد لا تفهم أسلوبه ، وحين أحست نسرين بضجره نهضت . قالت بلطف :

- أتنام الليلة هنا ؟
- تعرفين أني أسافر !
- أتأتي ليلة أخرى ؟
- قد لا أستطيع !

صمتت بانكسار قال :

- تعالي أنت

وتلقّت أعماقه حافزاً ، أفقده توازنه . ارتفعت حرارته ولم يستطع المقاومة . كان عليه أن ينهي الملحمة ، فنهض ، وأخذها بين ذراعيه !

حمله القطار الصاعد إلى الديوانيّة . كان قد اعتاد ضجر السفر ، وهزات العربات ، وبطء السكة ، وعرج القطار . في السيارة من « الديوانية » إلى النجف غالبه نعاس ، لامست وجهه برودة الزّجاج ، وارتسمت « بنات نعش » أمام عينيه ، وهنّ يحملن نعش أبيهنّ !

كن يتظاهرن ويبحثن عن القاتل . سهيل قاتل أبيهن اختفى في

وتخلص من همز العائلة إذ جلس من النّوم متأخراً ، ودخل الحمام ، فانتعش جسده لماء ساخن . لا يدري كم مرة دلك جسده ؟ وكأن دفء الماء تسرب في مسامات جلده ، فأحسّ بصدره ينشرح ، ونشوة عارمة صهرت آخر نقطة خوف ينبض بها قلبه .

كان والده قد غادر البيت مبكّراً . رأى أن يقصد الحانوت ليحي الرجل من باب الأدب . لم يتناول فطور الجبن والشاي في البيت .

كانت به رغبة لأن يذهب إلى دكّان « جلاوي » بائع الكباب ، فلكبابه رائحة اعتادها وهو صغير ، ولمذاق اللحم الذي يشويه طعم لا يزول من الفم .

حين عبر الرصيف قرب جامع « الجوهري » انحرف يساراً ، لكنّه أبصر الحانوت مغلقاً . عجب للمفاجأة . قد يكون العم « جلّاوي » مريضاً أو .. منذ الصغر ، وهو يأكل عنده الكباب . لم يغلق حانوته إلا يوم العاشر من المحرّم !

استقبله والده رافعاً ملقط الذّهب عن النار . انحنى يقبّل يده عدّل الشيخ وضع نظاراته ، وسحب نفساً طويلاً . قال :

ـ أهناك إضراب ؟

ـ كلا . إجازة .

ـ والمحاضرات ؟

ـ سأنسخها .

أعاد الشيخ الملقط إلى النار . انصهرت مادة بيضاء داخل البوتقة خفّف من ضغط النار . قال الشيخ :

ـ أسافر اليوم عصراً إلى كربلاء .

ـ وعدت بعض الأصدقاء أن نسافر معاً .

وجد أنه أفلح في إقناع والده الذي لم يلتفت إلى العذر . نفض يديه من النار ، ثم نهض إلى الكرسي المقابل لصندوق الزجاج ألقى سواراً في

الميزان ..

ـ أستطيع أن أكلمك في مسألة خاصة ؟

إلتفت والده باهتمام ، وكان قد أنهى زنة السّوار ، وأعاده إلى صندوق الزجاج . قال :

ـ أهناك شيء ؟

ـ فتاة بصرية !

ـ ما اسمها ؟

ـ سعاد عبد الكريم النجار

سحب من الجرار قلم رصاص وقَصاصة ورق دوّن فيها معلومات لوالده . قال الأب :

ـ سنسأل عنها إذا كانت من عائلة جيدة !

لم يكمل الأب . فهم حسين معنى عبارة والده الذي انصرف إلى الموقد ثانية . قال وهو يشعر براحة :

ـ وجدت دكان العم « جلاوي » مغلقاً ، سأرجع لأفطر في البيت .

اعترت حسين دهشة يخالطها حنق وغضب . قال الأب :

ـ اتهموه أنه يقدم لحم البعران ويدّعي أنه لحم بقر فأغلقوا دكانه !

ـ أهذا هو السبب ؟

ـ كان يرفع على الجدران صوراً تثير الدّولة . منعوه فلم يمتنع ، وعندما عجزوا ، أثاروا مسألة لحم البعران !

هزّ حسين رأسه بأسف . قال وهو يقترب من الباب :

ـ أهو الآن عاطل ؟

ـ يقال أنه سافر إلى البصرة ليفتح حانوتاً هناك !

تلاشت الرغبة للفطور . أحسّ بتصلب في فكيه . ترك والده يعالج موقد النار ، وخرج يتجول في شوارع النجف !

عصراً كان يتجول بكربلاء . قصد زقاقاً ضيقاً . أبصر عتبة

الضريح . أطفال حفاة الأقدام يطلّون من فتحات صغيرة بين أرجل المارّة ، ورجال اختلفت أزياؤهم من العقال والكوفية إلى شباب في سراويل وقمصان سوداء ، ووقفت النسوة يتلفعن بعباءات يرقبن سيل المواكب القادمة .

كان بعض الشباب يتطلعون إلى الأعلام ، وهم يقفون على أخمص أقدامهم ، بينما مال آخرون إلى بعض النسوة ليغتنموا فرصة غزل ثمينة ، وربما راحت بعض العناصر ، تستغل وضع الازدحام ، لنشر أوراق سياسية بين الناس !

وسط الطريق يسير شرطة يحملون عصيهم ، ليبعدوا بعض الأطفال ، حين يفكرون بالقفز فوق الرصيف إلى الشارع ، لكنهم سرعان ما يعودون بابتسامة شماتة ، ويذوبون بين الناس !

كان الجمهور ينظر الشرطة بتقزز . لم يكن يوماً في تفكير أحد أن شرطياً يسير لضبط موكب يقصد ضريح الحسين . كانوا يفسرون وجود شرطي في زيارة الأربعين خوفاً من غضبة جمهور عريض ، قدم من ألوية العراق ليحي شخصاً استشهد ، وهو يقاتل الحكومة !

ومهما كان الحاكم فهو يزيد !

ومهما كانت الشرطة فهي شرطة يزيد !

كانت العيون تنزف لا عن خوف ، والأعصاب ترجف ، ارتفعت أعلام العشائر وأعلام الحزن فوق الرؤوس . كانت الراية تخفق تحت الكفّ . موكب العمارة . موكب الديوانية . يليها البصرة ثم السّماوة !

والأفواه تصرخ ..

نحن أحياء نموت كل يوم نحلم بالحرية والخبز ، والحلم يشخص أمام العيون كل عام . الرجل ضحى ليشيع الحشد يوماً واحداً ، فمتى يشبعون كل يوم ؟

اليوم يظل الطعام في الشارع وكأن الشهية تتفتح أوسع . يقولون

مرتفعة ، يشرف عليها باب أخضر ذو مطرقة صدأة . طرق الباب ، وانزوى إلى اليمين .

أطل رجل خشن الملامح ، ذو شارب كثّ . برز عظما فكيه ، وارتسم السمار على شفتيه بوضوح ، كانت ملامحه توحي بالرجولة ، والخشونة ، وعيناه تنحدران بنظرة حادّة ، وثاقبة !

قال حسين :

ـ فرس !

ابتسم الرجل الخشن ، ومدّ يده يشد بعزم أصابع حسين :

ـ دعلج !

سعل دعلج ، ودلف الاثنان إلى غرفة مستطيلة ، تكاد تخلو إلا من سرير وكوز ماء خزفي ، ثم هبطا سلماً إلى سرداب ينيره ضوء متآكل .

قال دعلج :

ـ أمن أمر آخر ؟

ـ أن تتحمل مسؤولية موكب البصرة !

ـ أرجو أن أوفّق !

ـ احفظ الأهازيج جيداً . ستصعد على الأكتاف . وتهتف :

ـ ما هو ترتيبه ؟

ـ بعد موكب الديوانية ، وقبل السماوة !

ونهض ذو الشارب ، ومفصلا ركبتيه يصدران طقطقة ، قال بابتسامة عريضة :

ـ الجو هنا دافيء ، هذا فراشك . أما الماء ففي القارورة . احفظ الشعر جيداً . أما أنا فأغيب وأرجع ، ثم نخرج لننسق مع المواكب الأخرى ، وغداً ينتهي الأمر .

احتشد سيل الناس على رصيف شارع « الصادق » المؤدي إلى

البطن لا تشبع من أكل عاشوراء ، إنها بركة ، وأيام الحسين يختفي الجوع . إنه مات جائعاً وعطشان ، لتشبع بطون وترتوي والجمع ينسى العالم ويتذكر حماسته وعظمته . اقترب حسين من الراية ، وهزها بعنف .

كانت راية « العباس » التي لاح في أعلاها كف معدني. حمله اثنان على كتفيهما . لقد حفظ منذ البارحة الشعر .. إنه مطبوع في قلبه وكلماته ترتسم أمام عينيه ، تمنى هذه اللحظة أن يرى الشاعر . يختفي في شخصه . صاح ويداه ترتجفان ، وعرق غزير ينبع من جبهته :

شيوعيّة شعوبيّة
الشيعة شنيعة
الشيعة ناس أطياب
عليمن هذي الألقاب
شمال الوارم اخرست عليها
شيجيها من أيديها !

وردد الحشد الثائر الأبيات ، وصعد آخر وسط الحشد ، يوصل صوت حسين إلى مدى مترام ..

واهتزت الراية ، وارتفعت راية عشيرة تعانق الكف ، وتشابكت أيد على الرؤوس . كانت المواكب تردّد أهازيج تتباين في المضمون . في البداية تعرّض شرطي وضابط أمن إلى الحشد ، فداستهم الأقدام ، وقدم حامل « بلطة » يهدّد مفوّضاً أظهر شراسة في البداية ، بعدها تراجع بغضب مكتوم !

ولم تصل أوامر بغداد للشرطة . انسحبوا بهدوء ، وأشرفوا من أماكن قريبة يراقبون بصمت . ظلت حلقات تنزف دماً . رجل يرفع « بلطة » حادّة يضرب رأسه ، ثان يصدّ الضربة ، فيكون وقعها على

الرأس الحليق ، أخف وطأة !

وانتشرت خلفهم حلقات رجال يضربون ظهورهم بسلاسل . كانوا يتألمون ولا يشعرون ، الظهور زرقاء ، ورؤوس دامية ، ومنذ سنين هم ينزفون ويتطلعون إلى القبر .

الوجوه تختلف !

الأبعاد سمات الوجوه الغاضبة !

وتتوحد الأصوات . هذا الشّلال الصّاخب بعمق صلد الصّخر ، وكثيراً ما قطرة الماء حفرت عيوناً على صخرة قديمة !.

قد ينسى السكران همومه لساعة ، وقد يخشع المؤمن ليلة في جامع ، وقد تجهض حاملٌ ما في أحشائها ، فتنتظر الجموع ميلاد طفل يكون المخلّص ، والمخلّص مات قبل يوم .

- أنت آدم الجديد يا حسين !

- حواؤك سعاد لم تعد خاطئة !

من عهد آدم والحياة شربت الدم . حين دفعت المرأة آدم إلى الهبوط ، وتعلّقت به ليهوي الاثنان ، فعانت ألم العقاب . تتألم عند الولادة . تنزف كل شهر ، وتتألم تسعة أشهر .

- أيبقى قابيل لا يعاقب ؟

- النسيان يلاحقنا خلف الألم !

عاش القاتل والجريمة تلاحقه . الهمّ يلقي رماله الحارّة في عينيه ، فيظل ينشب أظافره في مجهول مرعب !

حسين أنت الآن ترتفع عن الأرض . ترفعك الأيدي !

والأرض تشرب الدم . تعاقب نفسها . ينبت فيها الشوك . يدمي أقدام الأبناء ، وتأكل القطة جراءها ، والماء الذي يكسو جسدها العاري يكون ملحاً ، ويكون الثلاثة من ظلّ الخوف !

المرأة تصرخ .

الأرض تشرب الدم !

الرجل يصرخ

وها هو الحشد يصرخ

الأرض تشرب الدم ونحن نقتل !

ويقول القتيل . إذ يسقط بين الجثث « واجعلهم طرائق قددا ولا ترض الولاة عنهم أبداً »، ونحن الآن مجتمعون أيها القتيل !! المؤمن والكافر . الطيبة والخبث . الحرية والعبودية ، وعظمتك أنّك جمعت التناقض هذا في يوم ، وسنعود مشتتين بعد أن نعتذر منك ، لأننا قتلناك !

كان السيل يجرف حسين ، وهو يغيب ، ينفصل ، يكاد لا يحس بأنفاسه المتقطعة ، وينسى العرق المتصبب من جسده . الغد يأتي ، سنرجع إلى بيوتنا ، نرجع بوعينا الكامل .. حتى السكارى يرجعون يقظين ، ويستقبلنا الولاة !

- متى يرضى الولاة عنّا ؟

نقولها هنا أمامك . ويخنقها الهواء إذا تحدّثنا بها خارج المرقد !

قد نكون نحن الولاة . نرفض أنفسنا . نحتقر وجودنا ، ونهيم في غيبوبة العظمة ، وكلّنا يلعن ويترحم !

الحاكم يُلعن ، وإذا رحل بانقلاب ، قلنا أفضل من الحاضر !

هل تبقى يوماً ذرّة للتفاضل ، وتعلق بمن يأتي ؟

كنّا نصرخ دائماً ..

الأطفال يصرخون عند الولادة . من يدري لعلّ صراخهم لعنه !

والوحوش تعوي لمغرب الغابة ! ولعلّ الصراخ يلعن الشمس ! والطيور تنعب وهي معلقة ، ولعلها تلعن ما تحتها !

ما الذي يميز الحياة بلحظتها الهادئة عن بعضها ؟ الأشياء تتنافر .. تحتزّ وتبرد ، ولا يبقى غير الصمت ، والصمت علامة تطبع الألسن ، فتختفي في جحورها الأفواه !

بعد الصخب صمت ..

الأطفال يصمتون حين يفهمون اللعنة !

والوحوش ، والطيور ..

وحسين نفسه تاه وسط موجات الضوء ..

ويذوب الزمن اللاهث .. يتعب من جولة عميقة الغور .. غير أنه لا يتوقف ..

لم يعد لصمت الكون معنى ، فيكتشف الجسد الرابض في القبر سرّنا ، يكون جسراً لعبورنا من الجريمة في عهد آدم إلى الجريمة فينا ، إذا عاقبنا أنفسنا الآن أو غداً .

كان الحدث يتكلم ونحن صامتون !

ثمّ تدور الأيام ..

نحن نتكلم ، وها هو حسين يتكلم . يصرخ والبصرة تهتف خلفه ثم يسود همس ، وتتوقف الأنفاس . ربما حدث شيء . ربما سقطت حكومة ، ولعل وزراة تغيّرت ..

فجأة اجتاح موكب السماوة المواكب . إتحدت الألوية بلواء واحد ، واختفت القصائد إلا قصيدة واحدة ارتجلها شاعر :

شوف اين بلا وتصور
حتى بالمنصب لا تغتر
احذر الأهوال
أنت والسلال
لا يخدعك أبو الفينة
خليته نخبرك خليته

ارتسم الهتاف على كل لسان . حسين نفسه ودّ أن يكون الأبيات الأربعة فتردده الألسن . الشاعر جمع أربعة رؤساء عرب . يخاطب الرئيس العراقي ، مصيره سيكون مصير ابن بلّا ، والتهديد إلى السّلال ،

وصاحب الطربوش !
الناس يهددون الرؤساء
عارف .. ابن بلا .. السّلال ..
الناس تغلي . يتصبب عرقها . الظهور تزرق . الدّماء تسيل ، والألسن تلج بكلمات واحدة تتساوى فيها المقدمة والنهاية !

ارتسمت قطرات دم أمام عينيه . كان يغالب دموعاً شنّجت وجهه . أحسّ بحرقة تحت أضلاعه . كاد يقفز في الهواء رفع رأسه نحو الراية والكفّ . ارتقى على أحد الأكتاف ، وواصل يهتف :

شوف ابن بلا وتصور ..
حتّى بالمنصب لا تغتر ..

وخيّل إليه أن هواء الأرض لا يسع رأيته ، وأن صوته يعبر المحيطات ، ويخترق الفضاء ، وأبصر الحسين أمامه متعباً يقف بشموخ ، ويبتسم له ، فعاوده حماس شديد ، وراح يهتف بصوت مبحوح ..!

- ١١ -

لم ينعم حسين بليلة اعتيادية في عربة الرجوع إلى البصرة . تعود كل مرة يسافر فيها أن يلصق رأسه بالكرسي ، فلا يحس إلا والقطار يتوقف في شباك الفجر .

تلك الليلة أزعجته ضجة المسافرين بأحمالهم المكدسة على حافة الخشب في العربة . سعال العجائز وغيوم دخان السجائر . دخل حارسان يقيدان مجموعة من الجنود الهاربين إلى وحداتهم . بعض الجنود يستمرون في الضجة إلى الصباح . آلات التسجيل تنثر لحناً شعبياً حزيناً ، وبين فترات الوقوف القصيرة ، يصعد شحاذ يوقظ النائمين ، وهو يجتاز الممر الضيق ، وينعق بصوت مبحوح ، ودعاء متشنج .

عجلات الوحش تدور ، وتهتف بكلمات سريعة النغم ، كأن الحشر المضغوط يسير إلى نهاية مجهولة ، فيرفض الاستسلام للصمت .

ألقى حسين التحية على مسافر قادم من بغداد ، لا زال حتى وصول القطار إلى الديوانية مستيقظاً . كان ساهراً ، وكأن الضجة لا تعنيه ، يرتدي بدلة قاتمة ، وربطة عنق ، ويحمل حقيبة دبلوماسية !

في البداية ظنه حسين أستاذ جامعة على الأقل ، فهذه الحقيبة السوداء ، شاعت في البصرة ، بعد افتتاح الجامعة ، لكن المسافر الذي أثقلت رأسه الضجة ، فتح الحقيبة ، وأخرج منها منشفة ونعال اسفنج ، وراح يغط في نوم عميق .

بعد ساعات كان الفجر يقيد عجلات القطار . اختلطت على النائم مناظر عديدة « الهور » والمحطات المظلمة ، والبيوت القديمة على الأرصفة الممتدة وشعلة النار في « الشعيبة »، نهض من كرسيه ، وأسرع يسابق النازلين نحو السيارات المتوجهة إلى العشار . لفح وجهه هواء البصرة الرطب ، فأحس بلزوجة تسري في وجنتيه كدبيب النمل !

ها هو يسرع إلى الكلية . محاضرات الطبيّة لا تعوض . ثم يتذكر درس اليوم جيداً ، ويتذكر الرجل الطيب الذي يسافر إلى النجف فيعود حاملاً الموتى ، يلقي التحية عليه صباح كل يوم . وجهه يوحي بالموت والصّفرة . كلية الطب لم تغفل شيئاً . خصصت أحد الموظفين يشتري الجثث من النجف . جثث مجهولي الهوية في البصرة قليلة .. الرجل يتعقب الموتى إلى النجف ، ويواجه مصاعب في الذهاب والرجوع ، أحياناً يعود بخفي حنين ، الناس يذهبون بالضجة ، وهو يعود بالصمت ، وهناك من يرحل للماضي ، وهو يقدم من زمن غابر ، التراب في يديه وعلى خدّيه صفرة الموت .

في الصباح قبل بدء المحاضرة إلتقى به حسين . حيّاه بابتسامة غامضة ، أطلت عيناه من خلف زجاج النظارة تحيطان حسين بهالة من

الاحترام . كان يشعر بصداع . لقد دخل المكتب ، ليتصل بمازن رفع الرجل عينيه . ألقى قلم الحبر جانباً . قال بهدوء ، وابتسامة ترتسم على شفتيه :

- **كنت رائعاً !**

تشنجت يد حسين في الهواء على السماعة إلتفت إلى الرجل ، قال باستغراب :

- **أي شيء ؟**
- **هناك كنت معكم . لقد كنت أردّد ما تهتف به . هل تكتب الشعر ؟**

احسّ بلذّة الكذب قليلاً . هزّ رأسه بالايجاب ، والدّهشة مازالت ترتسم على ملامحه . قال :

- **قليلاً ..**
- **الجميع يوم الجمعة في عطلة . أتأتي نتغدّى معاً ؟**

رغب في التخلص ، رغم طيبة الرجل . قال :

- **أقرأ في الدار .**
- **قصدي أن أدون ما عندك من قصائد .**
- **حين تسمح الظروف .**

كان صوت التلفون يرنّ في الطرف الآخر ، وحسين ما زال يطوق السماعة بقبضته . قال :

- **أقدمت اليوم بجثة ؟**
- **هذه المرة لم أذهب لشراء جثّة بل لأزور !**

لم يستطع حسين أن يبقى طويلاً ينتظر ، فقد أعلن جرس الكلية عن بدء محاضرة الصباح !

كانت الغرفة شبه مظلمة ، مستطيلة ، زرقاء السطوح ، دونما شباك ، وسطها مصطبة قديمة ترتفع إلى منتصف الواقفين وتجمد المكان كأن الثلج أفرز الغرفة ، وتحلّق حول المنضدة طلبة ، وطالبات ،

والأستاذ الهندي يتحدث بلغة بطيئة يفهمها الطلاب .

كان حسين صامتاً تلفه في قتام الغرفة بطولته في النجف وضجة القطار ، وعلامة لموت بارد يثلج قدميه المتخدّرتين ..

ووقف جنب حسين طالب ثرثار ، كان يكثر الحديث بمناسبة ودونها ، ويثرثر بصمت خوفاً من غضب الأستاذ !

- انظر عضوه التناسلي . هيفاء تنظر وتتحسر . هل تستطيع أن تتحمل مسؤولية أطول منها ؟ أسألها ! ربّما أطول أيضاً !!

توقف الأستاذ لحظات ليرفع بعدها أداة حادة يقتطع جزءاً قريباً من مثانة الأسود المتجمد . ألقى الجلد المقطوع في سلة مهملات مطاطية ، وواصل الحديث ، دون توقف !

كان صوته يوحي بمدرّبي اليوغا الهنود . فيه رهبة ويثير حماسة ورعباً ، كأنه إيذان لاستدعاء عالم جديد يسري في أوصالنا . يدخل تحت جلودها ، فنحيط به بكل شطحاتنا وأبعادنا !

وفجأة انحل الصمت ، ماءت قطة فأطلق الطالب الثرثار ضحكة مكتومة ، وارتجفت بعض الطالبات ، وتطلّعت عيون ألى أسفل المنضدة ، حيث مصدر الصوت !

كانت قطعة تسلّلت إلى الغرفة من مكان مجهول ، وراحت تتلذّذ بقضم قطعة الجلد تحت الأرجل !!

وهنا زعق الأستاذ بغضب ، وتمتم بلغة انكيزية ..

It is crime. It Must be Killed

ضجت قاعة التشريح ، وقفزت القطة بين الأرجل ، وأنقذ الموقف رنين جرس الاستراحة ، ففتح الثرثار الباب ليطلق لساقيه العنان خلف القطة ، وتبعه الطلاب ، بينما واصل الأستاذ صراخه الساذج .

حين خرجت الوجوه للشمس العارية ، كان الثرثار قد سبقهم بمسافة . أما القطة فقد قفزت بين الحشائش ، واختفت ، وإتجه الطلاب

إلى نادي الكلية الطبية في المستشفى الجمهوري .

إنهم يقضون نصف ساعة ، يعودون بعدها لمحاضرة في علم النفس . اتجه حسين مسرعاً إلى غرفة الموظف جالب الجنائز . أستأذنه فقابله بترحاب يتميز عن السابق . أدار القرص سمع رنين جرس من الطرف المقابل . قال الموظف :

- كنت رائعاً ياحسين !

أصغى بفكر مضطرب إلى الطرف الآخر . قال الموظّف :

- وددت أن ترتقي على كتفي ..

قال حسين وهو يحرف الحديث :

- يبدو أن الخط عاطل !

- كم الرقم !

تحفّظ بالاجابة . قال بابتسامة :

- سأدير القرص من جديد .

أعاد الاتصال ثانية ، ولم يظهر صوت من الطرف الآخر . خرج من غرفة جالب الجثث . وصوت الرجل يلاحقه :

- لاتنسى أن تكتب لي القصائد ..

في النادي كانت حلقة صفهم قريبة من بعضها . ظهر برود في حديث الطلاب ، فربّما لم تسر الشعلة الملتهبة بكليات الجامعة في كلية الطب . إتخذ مكانه على طرف مصطبة طويلة جنب هيفاء التي سحبت حسرة طويلة في غرفة التشريح . قال أحدهم :

- ربما ينفجر الوضع .

قال الثرثار :

- أما هنا فأعوذ بالله

قالت هيفاء ، وكأنها لا تعي غمزات الثرثار :

- بالتأكيد ..

أجاب طالب يقضم البسكويت ، ويحتسي « البيبسي كولا »:

- نحن لا من يسمع ولا من يرى !

أكد كلامه الثرثار ، وكأنه لا يريد أن يتوقف :

- لو كانوا أذكياء لاتجهوا اتجاهات علمية ، ونجحوا بمعدل عال . نحن قررنا طريقنا بأنفسنا ، وحين نتخرج تجد الدولة نفسها مرغمة على توظيفنا وإرسالنا إلى الخارج .

قال حسين ، وهو يشعر بلا جدوى المقاطعة :

- أنصبح كلنا أطباء ؟

قال الثرثار :

- لا أعتقد أن هذا جواب السؤال !

- من العيب على طبيب ألا يعرق !

- أنا مقتنع بتحليلي . الأذكياء في الطبيّة والهندسة ، وما دونهم في الزراعة والعلوم والآداب ..

قال حسين بحدة :

- ظروفنا المالية دفعتنا إلى الطبية ! من منا فقير ؟

قال ضخم الجثة ، ومازال يقضم البسكويت :

- لِمَ لَمْ يدخلوا الهندسة إذن ؟

أكد الثرثار كلامه :

- ماذا يطلبون من الدولة ؟ هم اختاروا طريقهم ، وهم يتحملون التبعات . نكون أطفالاً حين نؤيدهم .. أليس كذلك يا ...

كان يهم أن يقول « هيفاء » لكنه لاحظ نفوراً منها ، فحول الحديث إلى حسين :

- يا دكتور « حسين ».

كانت فرصة قصيرة تنفس خلالها الطلاب ، وعادوا إلى علوم مختلفة في التشريح وعلم النفس والباطنية ، ثم انصرفوا الساعة الرابعة عصراً ،

وما كاد حسين يبعد عن العمارة داخلاً سوق « حنّا الشيخ » الجديد حتى أحس بكف تربت على كتفه . كان العم « جلاوي » يقابله وجها لوجه . عينان نرجسيّتان . شارب خفيف . رأس مدوّر تعلوه طاقية بيضاء . يد برزت عروق ذراعها . ضم أحدهما الآخر بقوة . قال حسين :

- أتذهب معي إلى الدار ؟

- كلا . تذهب معي أنت لتتعشى كباباً

عبرا الجسر إلى سوق « حنا الشيخ » القديم . دخلا شارع الصفارين ، وعلى بعد خطوات أبصر حسين دخاناً يتصاعد من مدخنة نحاس ، ولفحت أنفه رائحة الشواء . كاد الحانوت الصغير يغص بالرواد . جلس على أريكة قديمة يغطيها حصير . جلس جلاوي جنب حسين ، وقال كأنه يتوقع ما يجول في ذهن ضيفه :

- كنت أرفع صور رجال الدين وتحتها شعارات تمس الدولة !

- الله لا يقطع رزق عبده !

كان « جلاوي » يتحدث بثقة تزرع الدّهشة في قلب حسين .

- قد تحتاج إلى نقود . كل عندي وسأسجل الحساب إلى نهاية الشهر !

قال حسين يجامل :

- اشتقنا إلى طعامك ورائحته !

صمت « جلاوي » فترة . إلتفت إلى الصبي ، وأصدر إليه إرشادات ، ثم عاد إلى حسين :

- أصحيح ما يجري في الجامعة ؟

- نحن طلاب الطبية في المستشفى من الثامنة إلى الرّابعة نكاد لا نتصل بالعالم !

- يقولون فتاة جامعية حبلى !

وقد أثقلهم يوم منصرم بعبئه المعتاد .

★ ★ ★

ولم يعد حسين إلى الشقة . كان هدفه أن يتصل بمازن . أقلّته سيارة الجامعة إلى موقف سيارات البصرة المعتاد ، فلم يبعد عن البريد بضع خطوات . دلف إلى الدّائرة ، واستخدم هاتفاً حكومياً هذه المرة جاءه صوت مازن ، وانزوى بعد ذلك في مقهى صغير ، يرتاده كبار السن والمتقاعدون ، يقابل معرض « باتا » في سوق الهنود . قال مازن :

- استلم النقود ؟

- تم كل شيء ، وهذه رسالة منه .

- الاضرابات أزعجت الدولة ، وربما يصدر تغيير وزراي جديد !

- الوزراة كلها ؟

- سيغيرون وزيراً أو وزيرين وينسبون البدائل من الجنوب !

- لكن الجدد ليسوا يساريين بالتأكيد !

- لا جديد تحت الشمس ! .

- أهناك أخبار عن الجامعة ؟

- طلاب الكلية الطبية آخر من يسمع !

- مناورة جديدة محورها أن طالبة حامل !

- ممكن ، وسيحمل الخبر أبعاداً إذا كانت الفتاة من أهل البصرة !

- ربما هو مفتعل ، أعلنته الحكومة لتبيح للشرطة دخول الحرم الجامعي .

وقاطع حسين :

- من من الطالبات ترضى أن تمثل الدور ؟

- بطلة مجهولة !

نهض الاثنان ، ثم انصرفا متجهين نحو ساعة « سورين » وعبرا « جسر الهنود » وافترقا عند عمارة « النقيب ».

- محتمل والله أعلم !
- هناك من يقول الحكاية مفتعلة !
- الدولة ليست غبية !

قال « جلاوي » بحسرة ، كأن كابوساً ينيخ على صدره :

- أعوذ بالله من هذا الزمان . كان زماننا صعباً ، لكنه لم يكن بمثل هذا الحقد وهذه الوقاحة !

- ١٢ -

عدّلت سعاد هندامها ، واستعدّت للخروج .

تصورت بالتأكيد أن حسين يزورها في الآداب حال تفرّغه ، ورغم الفرح فقد شعرت باضطراب لا تستطيع أن تبين سببه ، أهو بخير ؟ أهناك حدث مؤلم ؟ شيء مبهم ، وكأن رجليها تتخالفان في مشيتهما .

كانت الأم قرب الباب تملأ سلة المهملات ، سمعت جرس الباب يرن . قابلها وجه أمها ببسمته الهادئة ، وهي تضع يدها اليمنى على كتف « أم عبد الله » العرافة التي قابلت سعاد بالتسبيح والصلاة .

ولم يكن ما بقي لسعاد من وقت يفرط به . غير أن « أم عبد الله » وعدتها أنها لن تؤخرها أكثر من دقائق ، ورضخت الفتاة أخيراً لإلحاحها .

اعتادت الضيفة أن تزور العائلة مرة في الشهر ، فمن عادتها أن تلف بيوت صديقاتها ، فتسيح في لواء البصرة ، وقد خصصت لكل بيت يوماً معيناً ، وسيكون غداؤها اليوم في بيت أم سعاد .

كانت امرأة البيت تصر على أن لأم عبد الله الفضل في بقاء سعادتها ، فهي محرومة من الولد . أمها تتعلق بوالدها حدّ الجنون ، والرجل بلا ولد نصف رجل ، فكانت « أم عبد الله » تكشف وتحرر المستقبل ، وتفك الأسرى من قيودهم ، وتحتجز في فنجان الرمل وتشعل البخور ، ولم يفكر والد سعاد بالزواج من أخرى ، وكانت المرأة

تمنحه على فراش ساخن ما يرغب ، ولم تتسبب يوما في غضبه !

تطلعت الضيفة في وجه سعاد . قالت وهي تتجاوز فترة صمت اقتنصها فنجان مقلوب :

- السعد الخميس !

تهللت أسارير الأم . ابتسمت سعاد راحت الضيفة تدير الفنجان :

- لتحذر الماء !!

قالت الأم :

- حذرتها مراراً من الزورق !
- كلام أمك ذهب . اصعدي في المعبر !

قالت الأم ، كأنها تطلب النجدة من « أم عبد الله »:

- متى تتخرج وتتخلص من عبور الشط ؟

كانت سعاد ترد بابتسامة توحي بالموافقة ، ثم استأذنت وخرجت ، وتركت المرأة وأمها تحاولان اكتشافاً لعوالم غامضة ، عوالم يرتبط بها أبوها وأمها والسماء ، وسرير غرفة شبه مظلمة .

وتجسدت لها الكلمات التي سيقنصها فنجان العرافة ، ستلومها على ذهاب الأب وحده إلى الزيارة فهناك كثير من طالبات المتعة ، وقد تصادفه في الرحلة امرأة في نفسها شيء ، والقطار مكان مناسب للتعارف . أبو سعاد يحفظه الله من السوء . رجل طيب القلب ، تستطيع الماكرات بأحابيلهن أن يعقدنه بسرقة قطعة من ملابسه أو يضعن له في الماء مسحوقا مسحورا ، لكن لماذا تخشى النوازل « أم سعاد » وصديقتها « أم عبد الله » تحجز وتطلق ، الرجل يحب امرأته ، ولتكن في الفراش لينة كالمهرة ، وأحر من فتاة العشرين .

أما البنت فسعدها الخميس ولتحذر الماء !

★ ★ ★

عندما ترجلت من السيارة ، كان هناك مشهد لم يكن مألوفاً ..

الأيام المعتادة لا تشعر فيها برهبة في هيكل الجامعة . يطل عليها تمثال الجاحظ الكريه ، والفتاة والطالب اللذين يمثلان الرعيل الأول ، ثم لا شيء غير الضجيج وصوت الجرس .

كانت امرأة يلفعها السواد ، أخفت الزرقة وجهها . تضرب صدرها بقوة ، ورجل استل خنجراً ، وراح يهدد بصوت عال بينما أمسك به شرطيان بقوة ، وبدا شرطيان آخران يمنعان الطلاب من الاقتراب ، وانتشر عدد من الرجال المسلحين في مدخل الجامعة ...

توقفت سعاد برهة . نظرت من بعد ، ثم انصرفت لتدلف من باب كلية الآداب الرئيس من غير جرأة للنظر في عيني الجاحظ الكريهتين !

قال طالب تعمّد أن يرفع رأسه عالياً :

- لولا الجاحظ يراقب التمثالين لحملت الطالبة من الطالبة !

رد الآخر بأسلوب تهكمي :

- لكنها حملت منه والجاحظ ينظر .

وأحست بعض الطالبات بحرج ، فابتعدن عن الطلاب !

كانت حادثة الفتاة مدخلاً لتغيير مجرى المحاضرة . وجد الأستاذ نفسه مرغماً على مجاراة الطلاب . قال بهدوء كمن يستذكر كلماته :

- حادثة واحدة لا تعني فساد الجامعة ، ولا توحي بالدلالة على أخلاق الطالبات ! هل نعمم على حالات شاذّة ؟

أحس بعض الطلبة أن الأستاذ يلف في محور لا يخفى مضمونه على اختصاصهم . قال أحد الطلبة :

- دكتور علينا أن نعرف أن الشخصية العراقية ذكية !!

قال الدكتور ، وهو يصعّد جبهته :

- من طعن بشخصية الفرد ؟
- كلامي له دلالة !

قال الأستاذ بانزعاج :

عقّبت أخرى :

- إنها من كركوك !

استطردت ثالثة :

- من أهل الكوت !

وقفت طالبة وسط الغرفة الخانقة ، وراحت تصف بانفعال :

- يقولون ألقت نفسها بالمدّ من جسر « الخورة »

سألتها طالبة ضعيفة اعتاد الطلاب تسميتها زوجة « بباي »

- ألم يعثروا على شيء ؟

قالت طالبة شقراء :

- عثروا على دفترها فيه بعض العبارات .. أنت قتلتني .. أنا الضحية

عقّبت أخرى :

- عباراته امتزجت بالماء . يبدو أنها ألقته في الشط من القسم الداخلي ، فجرفه المدّ إلى الساحل ، بعض العبارات مكتوبة باللغة الانكليزية ..

My god forgive me

I want your mercy.

تحدثت الفتيات طول الوقت عن الرّجال والحب والخيانة . امتزج حديثهن بالضحك ، وظلت المطلقة صامتة ، ولما هدأت الضجة ، حركت ساقيها باتساع فبان باطن فخذيها ، وأخرجت مرآة صغيرة وملقطاً ، وبدأت تلقط شعرات خفيفة على حاجبيها . تطلعت إليها الفتيات بابتسامة هادئة . قالت ، وهي تطيل النظر إلى وجهها في المرآة :

- ما ذنب الرجل إن لم تستطع هي أن تتحمل مسؤولية طولها شبر ؟

كانت إشارات الضجة ترسم قلقاً على عيني سعاد ، فلم يزر حسين الكلية ، ولا تعرف أغادر النجف ؟ غابت عن عينيها حركات المطلقة وبشاعة الجريمة ، وصورة والدها الغائب ، وعينا والدتها الهادئتان .

، أن توضح لنا أن كنا أقل نظراً منك !

بعض الطلبة ، واختلط معه صوت ، نقر الأستاذ المنضدة
، ليعم هدوء . قال الطالب :

جامعية انتحرت . الآراء تضاربت حولها ! من يتبين ذلك ؟
لا نعرف هويتها سوى أنها طالبة !

الأستاذ بهدوئه المعتاد :

لرنا إلى الشخصية الذكية التي تحدثت عنها لوجدنا أنها لا
، لذكائها ؛ شخصيتنا تنصرف إلى كلام فارغ فلانة ماتت .
انتحر ، ونرى الأوربيّين لا يأبهون لحوادث فرعية !

لب يعرفون أن الأستاذ حكومي الانتماء ، يجيد القفز في المواقف
، والرّبط عند القفزات . رفع الطالب يده يستأذن بالسؤال . قال

خرج

بابتسامة :

م نسمع من الطالبات شيئاً . لا تعلنوا الدكتاتورية . دعونا
أيهن .

اض

ن الطلاب أصابعهم . نظرت الطالبات الأرض ، واصل الأستاذ

نولين آنسة سعاد ؟

وقفز

ت سعاد لسؤال الأستاذ المفاجيء . تطلعت إليها عيون الفتيات .

النقلة

ول الطلاب خدّيها بالحمرة ، لكنها قاومت الاستسلام لعنف
قالت تداري خجلها :

ير .

متوفر في الحيوان أيضاً !

ة :

ن نوظّف هذا الذكاء .

أحد الطلبة أن يقحم نفسه ، لكن الأستاذ تدخل ، وأشار إلى
الت :

- كيف ؟

وهي صغيرة يدفعها الفضول إلى النظر في عيني والدتها . ترى صورتها الصغيرة . أما المرأة التي انتشرت التجاعيد على وجهها ، ومزقت الفراش بحرقة ، فهي والدتها ..

لا ينقذها من هذا الشبح إلا الغائب حسين . يعبر سنوات جافة ويسد الثقوب والشبابيك والأبواب ، ويحتضنها بقوة ، تتحطم لها ضلوعها ، وتذوب شفتاها ، طول فترة غياب والدها لم تفكر ، ولم يشغلها شيء عنه !

تجلس مع أمها . أحياناً تقرأ . أحياناً تزوران الجيران ، وتحضران حلقات القراءة الحسينية الحزينة ، وتعلو شفاه النساء الحاضرات بالدعاء لها ولأمها .

إنها تشعر بما يشعر به حسين . تنفعل . تحتقن الدّماء بوجهها وتترقرق دموع ، فتعجز عن الكلام في مواقف البكاء ، ويدور إبريق الشاي ، ولفائف السجائر ، ثم تبدأ المرأة القارئة بتوشيحها الديني ، وعندما تبدأ ينتشر الحزن في مدّ عميق وبعيد .

وتلاحق المرأة القارئة الآذان ، أما العيون فتهطل منها الدّموع بغزارة . أمها تحفظ تقريباً كل التواشيح باللهجة العامية وتنقد المرأة القارئة إذا تلكأت ، فعثر لسانها بكلمة مبهمة خلال السطور .

واتخذت سعاد صورة والدتها في حلقات الحزن أيام المحرّم . عيناها تهطلان بغزارة لقصة مؤلمة ، فتخفي عبرتها ، وتجلس القرفصاء لتخفي رأسها بين ركبتيها ، وتطلق للظلام المكبل عينيها مجرى غزيرا ، تشعر بعد ذلك براحة ، تنم في جسدها ، وخدر يشع من صدرها !

وتخرج من بيت أم سعاد النساء ، تشيّع الجوقة مع والدتها إلى الرّواق ، ثم يهدأ الجميع ، وتظل المرأتان وحيدتين !

اعتادت أن تنام وحدها . لا تقتحم عوالم الرجل والمرأة ، ولا تعرف ما يجري بينهما ، وترتسم خيالات لوسادتها وسريرها ..

يستلقي حسين على السرير « ببجامة » مخطّطة باللون الأزرق ، ويده تمتد إلى أزرارها فتفتحها بهدوء ، وتتحسس خشونة صدره ، ثم تجد نفسها عارية أمامه ، فتنتفض انتفاضتين ، وتتأوه بقوة ، ونعومة الوسادة على صدرها ، ويداها تشبكان ظهره ، فتنغرز أظافرها بظهره ، وتتقاطع رجلاها ، ثم يرتخي الجسد !

وغاب ، وراود الفتاة شعور بالقلق ، وكانت الأم أكثر تصميما ، فنامت المرأتان على سرير واحد ! وتميزت سعاد لمسة الفراش التي انطوت بنعومتها تيارات الدفء ، وكان للشرشف الوردي لون تنطبع فيه نمنمة العروق ، وظلت رائحة الرجل تشع من زوايا السرير ..

وربما تستفيق من حلم منتصف الليل فتجد أمها تطوق صدرها بيدها ، أو تشعر بفخذها يلامس جسدها !

من يدري لعل عوالم النوم توحي للأم أن الرجل مازال في الفراش والدّفء ، لا يذوب سريعاً ، وقد تسمع الفتاة همهمة أمها ، لكن لا تستبين ما توحيه الكلمات ..

كان البيت عصراً يزخر بالحياة « أم عبد الله » العرّافة رحلت منذ قليل . وقدومها كان خيراً ، بانت علاماته حالاً . أما والدة سعاد ففي حركة مستمرة . رجل البيت عاد وكأنه فارس منتصر ، ذهب لنصرة الأمام وعاد ..

وظهرت الأم بثوب أخضر شمرت أردانه فوق العكسين ، وارتفع من الأسفل حتى قارب الركبتين ، ولمحت الفتاة آثار احتقان ساقي والدتها ، وغابت عن عينيها شعرات سوداء خفيفة ، كانت تنتشر على الساقين !

ظلّ الوالد يتحدث كثيراً ، وعيناه تستعرضان ما حمله من كربلاء ، وكان يقطع حديثه بين فترة وأخرى ، ويزدرد ريقه ، ويتابع بانفعال . كانت كل المواكب عظيمة . الأبدان تقشعر لها . هذه المرّة كانت

راية البصرة عالية . لأول مرة في تاريخ المواكب البصرة تهدّد السلطة كان الشاب يهدد ونحن نردّد خلفه !

وعادت الأم تقطع على الوالد حديثه . فتضرب كتفها بيدها ، ثم تبتسم بخشوع .

- الله ! البدن يقشعرّ

ثم يواصل الأب بهدوء ورزانة :

- لكن موكب السماوة طغى على كل المواكب . إنهم الفرات الأوسط ..

وتقاطعه الأم ثانية :

- عشائر ، إنهم رجال ..

- كانوا شجعاناً ! لقد هدّدوا أربعة رؤساء عرب ، ثم أخذ يضرب يده على صدره ، ويترنم :

شوف ابن بلّا وتصوّر
حتى بالمنصب لا تغتر
احذر الأهوال
إنت والسّلال
لا يخدعك أبو الفينه
خلينه تخبرك خلينه

ولم تستطع الأم أن توقف انتصاب شعرها ، بضربات خفيفة على كتفها الأيسر ، وأخذت تعلق :

- ما شاء الله ! ما شاء الله ! سعيد من دُفن مع الامام !

أما سعاد فلم تستطع كبح جماح عواطفها ، فذهبت إلى المطبخ ، وأطلقت لعيبيها العنان ، فساحت دمعتان واسعتان على صفحتي خدّيها ، بينما استمر الأب يترنم بأنشوته .

لم يتوقع حسين رحيل النزيلين منتصف الأسبوع ، فحياتهم رتيبة ولها قانون ، حتى لقاؤهم يبدو مقتضباً ويغلفه الاكراه ، وحين دخل فاجأه النزيلان ، وهما يتأهبان للرحيل . الناصري أنهى رزم ملابسه في الحقيبة ، أما العماري ، فعلى وشك . سارع الناصري ليلغي دهشة حسين :

- غداً بداية اضراب . سأرحل إلى الناصرية .

وعقب العماري :

- هناك في العشائر سأكون بعيداً .

وتوقف العماري ، ونظر الناصري إلى حسين الذي أذهلته المفاجأة ، وكانت لهجة العماري حادّة وعصبيّة . قال حسين بهدوء :

- أتحتاجان إلى شيء ؟

قطعت الحديث لحظة صمت . أنهى الناصري رزم ملابسه ، وتوجه الاثنان إلى حسين ، وللمرة الأولى يشعر أنه يقترب من النزيلين بحرارة ، ويحبهما ببراءة .. تمنى الثلاثة أن لحظة كهذه تطول أكثر ، فينسون الزمن وساعة الاضراب والاحتجاج ، وأن الشقة التي تجمعهم لتخفيف الايجار ، قد تكون برهة قصيرة نقيّة ، لكن كانت لحظة جامدة إنتهت كأنها شيء رهيب ، بعدها توجّه العماري إلى مكتب نقليات « السعد » أما الناصري ، فاستقل سيارة إلى محطة القطار .

وارتمى حسين على سريرّه ، كان ظل السرير يحتجز مساحة قصيرة من الحائط ، والمصباح ذو القبعة الذي يوحي إليه بهيكل رجل أوربي ، يفخر بقبعته ...

- كيف يكون يوم الغد ؟

طلبة كلية الطب لا يعنيهم إضراب الآداب ، إنهم يتجاهلون كلية إسمها الآداب أو الحقوق . توظيفهم مضمون ، ونظرة المجتمع إليهم

- ارتاحي قليلا .. سأخرج لأجلب عشاء .

لم يبتعد بضع خطوات ، لكنه ارتد . قال :

- أتشربين ؟

أطرقت إلى الأرض كعذراء . راودها خجل متأصل ، قالت وهي تشيّعه إلى الباب شأن الزّوجة :

- أغلق الباب جيداً وخذ المفتاح معك .

كانت نشوة خافتة تفجر جسدها . ليلة تشعر بين دقائقها السريعة أنها أم بيت ، تود لو تطبخ تغسل ملابس حسين ، وتمنح عمقها ..

جالت في البيت . بعض أدوات المطبخ . قدر وصحون وطباخ مرآة تجثم فوق المغسلة ، ووجها يطل من الزجاج . التجاعيد اختفت من وجنتيها ، وعلامات السهر والخمر ، وتلاشى الخط المنهك تحت جفنيها السفليين ..

وطردت الهواء من رئتيها ، ثم استدارت إلى غرفة حسين . لم تحاول أن تطل في غرفة النزيلين ، كأن ما يعنيها من البيت القضايا التي تخص حسين .

السرير في الغرفة يسع شخصاً واحداً ، منضدة وكرسي . بعض الكتب تناثرت في أماكن متفرقة . لوحات وفرشاة ، وصبغ رسم ..

لوحة لغزال تطارده كلاب الصيد . لا تتذكر أين شاهدت الصورة في مدينتها الأولى ، لكن الغزال أقعى إلى الأرض وأحد الكلاب شدّ رقبته بأنيابه القويّة ، وأنشب الآخر مخالبه بظهره ، والكلبان الآخران قيّدا فخذيه .

طفل يبكي . صور لغربان ، ونوارس وأفاع تفح ، أسدٌ جائع يرقد لأن الفريسة امرأة بدت تتعرى أمامه !

ولوحة لناس يهتفون . لأفواه مفتوحة . الجمع الغاضب يحمل على الأكتاف شخصاً يهتف . راية تخفق ، والوجوه تتطلع إليها ..

- عند الأربعين انتهى كل شيء .

- نحن نعوض عن ماضيكم .

- أتعرف أن لديَّ سراً لو أخبرت به أهلكم وقتها لكانت ..

سكت العم « جلاوي » كأنه يستعيد شريطاً يحاول تذكره . قال حسين :

- هل فاجأتنا يوماً ؟

- كنت مراهقاً في الرابعة الثانوية . كان الوقت ظهراً .. أتذكر حورية البلهاء ؟

- أخوها الآن ضابط أمن !

- رأيتك تخرج من بين القبور ، وتلمح لأصدقائك بشيء ، ثم ذهبت إليها ، ودخلت قبراً معها ثم خرجت ودخل أصدقاؤك معها في القبر !

احمرّ وجه حسين ، فقد ظنّ أن لم يكن أحد وقتها ، لكنه يقف الآن خجلاً ، أمام رجل أحبه ، وهو صغير ، وإذا به يكشف أنه تسلط عليه يوماً .. ومع من ؟ مع بلهاء . لو كانت غير حوريّة لافتخر أمام العم « جلاوي » لكن مع حورية الوسخة ، موقف يثير تقززاً وكراهية .

تناول لفة الطعام . قال الحاج « جلاوي » يربت على كتفه :

- أتعرف أني أحبك الآن أكثر ؟

- كنا مراهقين .

- أخوها ضابط الأمن هو سبب غلق حانوتي . لقد انتقمت لي يا حسين حين طعنته بأخته وعاقبته مقدماً ، والآن أحسست براحة حين عرفت أنني لم أكن على خطأ لكتماني .

أحسّ حسين أن الحديث مع العم « جلاوي » يطول إن لم يلجأ إلى اللباقة . تناول كيس الطعام ، صافحه بحرارة وقد توارى خجله بعبارات العم « جلاوي » الأخيرة وهو يشيعه بابتسامة :

هذه هي الزيارة ،

ان ذكاء ، والأنف

شعر انحدر على

أنها سألت حسين

ات ضيق . الآن

شعورها بحقد ..

فحه ، وفي لحظة

، وينسحب في

ع البلادة !

ولعلها لشخص لا

كانت تنتظر مفتاح

صفيحة الشّواء ،

بطرف عينه إلى

شبابي .

ان . ومخاطراته

اب والاحترام .

لاً بين الطب والآداب ؟ وسعاد أتدخل مع الجمع ؟

. كم يستمر الاضراب ؟ ما تأثير شط العرب البعيدة

وتجسّد له الاختيار الذّكي لموقع الجامعة في منطقة

فظة شط عريض ، وتقع على أطراف « التنومة » ،

معسكراً لجيش انكليزي .

صور صوت جرس الباب لوحة من حلمه المشتت ،

انفصاله ، وقوّته للمرة الثانية . نهض من السرير ، وقد

مسافرين نسي شيئاً ما ..

فاجأه الوجه الأشقر ببسمته ، ويداها تحيطان ظهره

. نظر في وجهها . قال :

ة المنتشي الذي أحدث مفاجأة :

عة .. أليس كذلك ؟

ات مناسبة . قالت :

جيداً . طرقت الباب أمس لكن أحدا لم يجبني !

لصباح أحداً منا .

الت على كتفها . استرخت على حافة السرير . قال

ل تغسلين وجهك ؟

ببها إلى المغسلة . قالت :

؟

الليلة !!

بالماء والصابون . رفع المنشفة عن كتفيها . مسح

هو يداعب أنفها بسبابته :

- بسم الله الرحمن الرحيم !

ضحك بصوت مرتفع ، وكان الكأس فارغاً .

انتشر في الغرفة دخان السجائر الأجنبية . راحت تكرع الزجاجات بنهم ، وتجتاز الدّقائق إلى عالم الخدر ..

كان حسين يشرب ببطء . قالت :

- أيسرع الانسان إلى نهايته ؟

سكت . قالت :

- حسين لماذا أحبك ؟

أهي طفلة راودها الحنين أمها ؟

أهي دمية تتحرك بتوقيت ؟

بماذا يجيب ؟

مرّر أصابعه على شفتيها وصدرها . عوالم الخدر تتجسد في خلق بعيد عن هذا العالم . قالت :

- لن ننام حتى الصباح ، ولن تخرج إل الكلية .

تضايق من ذكر الكلية . قال :

- درس الغد جماجم . أتعرفين ما تعني الجماجم ؟

- ماذا قلت ؟

- إني أكره الجماجم !

- ألستم مضربين ؟؟

- الكلية الطبية لا تضرب ، الجامعة تعني الآداب والحقوق . الأطباء لا يضربون . أرأيت طبيباً عاطلاً ؟

- أكثرت من الشرب ليلةً ما . كنت في بيت زبيريّ . كدت أموت فغسل معدتي دكتور . وبدأت أحب الأطباء !

لزم الصمت . لم يدر لِمَ يحار في إجابتها . أتشلُّ الضحيّة لسان من ينظر إلى دِمها ..

- إذهب تخلص من سمّك لكن احذر ...

ودار مفتاح الباب ثانية ..

كانت نسرين تغيب مع الكتاب في ورقة الجمجمة ، تطير مع الحروف التي لا تفهمها ، ووقع المفاجأة إتخذ صورة مرح :

- هل أخفتك ؟

وضع الكيسين على المنضدة . قال يلهث :

- تأخرت ؟

- إنك متعب .

اقتربت منه . أحاطت كتفه بذراعيها . قالت بهمس :

- استرح جانبي .

تطلع في وجهها . تصاعد الدم إلى وجنتيه . بدت شفتاها ترتعشان ، ورجفة تسري في باطن فخذيها .. والتقت الشّفتان ..

كانت تغيب بين يديه . جسدها يندفع معه بحرارة . الرجال لم يكونوا صخراً ، وحسين هو رجل البيت . هكذا يندفع الزوجان ، وتظل الآهات تشتت الزمن ، وتظل الرجفة توقف دوران الأرض ، وتختفي النجوم والسماء ، ويزول ماتحت أجسادنا !

استلقى حسين على ظهره . ظلّت ذراعه اليسرى تحت عنقها ونظراتهما تتجه إلى السماء . قالت :

- في البصرة يبنون الغرف عالية .

سحب جسده من الفراش إلى الحائط . فتح الكيسين . أخرج الزجاجات وقطع الكباب . تناول الكأس المطاطي الوحيد الذي في الغرفة . قال :

- سنشرب بالتّعاقب .

قضم جزءا من « السندويج ». أنهى جرعة من « البيرة » أدنت الكأس إلى فمها . ابتسمت . قالت :

أشعلت سجارة عقب أخرى . قالت :

- **إني أشعر بذنب !**
- **من منا لاذنب له !**
- **كذبت عليك .**
- **قد نكذب في البداية .**
- **هل أصدقك ؟**
- **أتعين ما تقولين ؟**
- **أنا لست كرديّة .**

ضغط أناملها بني كفّيه . قال :

- **حين تتذكرين تتمزقين .**
- **لا أحب ما فات ، لكني أقول الحقيقة أمامك !**

تذكر أنها تمنحه أعماقها . سحب نفساً طويلاً متقطعاً ، كغواص همّ بالغطس . قال :

- **الماضي أغلال !**
- **كل ليلة أختلق قصة لمن أخرج معهم ؟**

كرعت مازاد في الكأس من رشفة على عجل . جمعت أجفانها . قالت :

- **أنهم يتلذذون بالذبح ، والضحية لا يهمها السلخ . كل من أخرج معه يسألني كيف وصلت إلى موقعك !**
- **أتحدثينهم بإسهاب ؟**
- **كل ليلة أختلق قصة . والليلة أقول الحقيقة !**

سكت . قالت :

- **أنا من أهل يعقوبة !**

سحبت نفساً عميقاً يعينها على استحضار عوالم القدم . بعقوبة بلد البرتقال والزيتون . عقّبت تنفث الهواء :

- **صارت ماجدة نسرين ورحلت إلى مدينة الحرّ !**

قال باهتمام :

- **ماجدة اسم جميل .**

قاطعته بضيق :

- **وهو لم يكن من بعقوبة . كان غريباً ، ومن بلد بعيد اشتغل في بلدتنا عامل مقهى . غادر العراق ، وانهزمت أنا .**
- **إلى هنا دون توقف ؟**
- **الجنوب هو الملجأ . كنت في حملي . أجهضتني امرأة في الحارة !**

صمتت . سحبت نفساً . قالت :

- **لو متّ كان أفضل .**
- **الموت ليس علاجاً**
- **تصوّر « أم كاطع » التي أجهضتني ، ماتت ، وحلّت بعدها امرأة أقل منها مهارة !**

انحنى على صدرها . تطلع في عينيها . قل :

- **الماضي يمزّقنا !**
- **أتصدّقني ؟**

هز رأسه بأسف . ارتمى على صدرها . إلتقت شفتاهما ثانية ، وعاد إلى الخدر ..

- **أنذهب إلى الحمام**
- **أرغب أن تبقى رائحتك عالقة بجسدي .**

كانت هذه الرشفة الأخيرة التي كرعتها . رمت القدح المطّاط بغير اهتمام . قالت :

- **حسين هل ترسمني ؟**
- **صورتك ارتسمت في فكري .**

ظلّت ساهمة . كفّن الغرفة هدوء . لم تعد أصوات الحركات تسمع

وصمتت الكلاب السائبة . تحسّس الجسد المحموم وأحس برأسها يسقط عن كتفه ، وشخير خفيف يتصاعد في الغرفة !

غداً درس تشريح . سيتنفس هواءاً متعفناً ، وتظلّ الجثة تذكّره بعمل نسيه باندفاع مراهق ، وكاد يمحي من ذاكرته ، لولا العم « جلّاوي ».

وجاء اليوم فأحدث له صداعاً . ليت العم « جلّاوي » بقي محافظا على سر قديم لم تشهده إلا المقبرة وبعض الأصدقاء .. ومهما تكن فجريمة مع بلهاء وسخة ، لا تغتسل إلا مرّة كل شهر ، مهما تكن ، فبرأيه جريمة لا غفران لها .

عدا خجل حسين ، فالعم « جلاوي » يفرح لتلك الجريمة . لم يكن مستنكراً ، وإلا لأخبر أولياءهم . كان ساكتاً بالرغم من ثرثرته ولسانه الطويل ، وقد أخفى السر سنين حتى إلتقى بحسين الذي نسي انتهاك المقبرة .

وظلّ وجه حورية البلهاء الوسخة يلاحقه ..

وكأن حديث الماضي أحدث صداعاً لطالب الطبيّة كاد يقسم رأسه نصفين . ها هو يحسّ بحرارة الغرفة ، والجوّ مازال في الخارج ينث البرد .

نهض بحذر . خطا خارج الدّار . كان الهواء بارداً ، وجسده العاري يقشعر تحت لفحاته . أحضر أوراق الرسم ، وراح يرسم ملامحها ، وسط الشخير الخفيف .

غداً يعيش مع الجماجم والعظام ، ويرى كيف ينسلخ الجلد واللحم وتنتصب العظام . هذا الجسد المتعب مازالت السّنين تندحر فوق غضارته . متى يستمر التحدّي . لم يرسمها عارية . الوجه يوحي بالحيرة . العيون بالشرود . التجاعيد تحت الرّموش السفلى ، ويغطي الجسد ثوب يختلط فيه اللون الأبيض والأسود .

أنهى اللوحة . لم يدر كم مرّ ، وهو يرسم .. نعاسٌ خفيف يشد جفنيه ، وتشنجت الأهداب حين سمع صوت المؤذن يعلن آذان الفجر .

الوقت صباحاً ، وحسين لم ينم ، وسترجع الحركة إلى المدينة . وشيئاً فشيئاً . كانت الأجفان تنطبق .. وأحلام ترقص بين الجسدين .

- ١٤ -

حين استيقظا كانت السّاعة تشير إلى العاشرة صباحاً .

وشعرت نسرين بخفة تجتاح جسدها ، وأسف على انقضاء ليلة تمنّت أن تستمر طويلاً ، وأن يخيّم ظلام أو تبتعد الشمس ، وتتلاشى ، تذوب في بحر الكون . إن الشياطين لم تعد في الليل ، والليل صلاة ملائكة ، وأرواح تفوح طيبة ، وربيع يخضر من سنوات قحط وجفاف .

إنها تعاملت ليلة واحدة بصدق ، فكان لون الليلة يسري في جسدها . ورائحة الرّجل الذي احتضنها تقطر من أنفاسها .

قالت :

- **كان يجب ألا ننام .**

قال بنبرة المنتصر ، ونغمة دافئة :

- **أتعرفين أنني رسمتك ؟**

أحاطت الصورة بإعجاب . قالت :

- **بهذه السرعة ؟**
- **كانت مفاجأة ؟**
- **أبقيت الليل ، ساهراً ؟**
- **وكنت نائمة !**
- **ألم أكن أشخر ؟**
- **ما رأيك بالمفاجأة ؟**

قبلته بابتسامة . قالت :

- **تشبهني .**

قرّب الصورة من صدره كطفل يعتزّ بلعبة . قال :

- **سأحتفظ بها .**

كانت تعرف أنها لا تستطيع أن تحتفظ بالصورة ، فربما تثير ضحك البغايا والسمسارات ، ظل جوابه ملاذا لها ، لكنها سألته برغبة يائسة :

- ستأتيك عندما أرغب أن أراها .

قبلها قبلة سريعة . وقفا أمام المرآة عاريين . غسلا وجهيهما . ارتديا ملابسهما . أحست أن حياة اعتيادية عاشتها أوشكت على النهاية . قالت :

- سأخرج .

قال ونبرة فيها شيء من الحزن تخالط صوته :

- يجب ألا تكون هذه آخر مرة !

- سأزورك متى استطعت .

- سأخرج معك .

- طريقنا واحد !

كانت السيارة تخترق الضواحي الميتة من شارع « الوطن » وجسر المحافظة ، ثم تعبر جسر المحكمة ، وتجتاز المجلس البلدي . أوقف حسين السيارة قرب جامع « الفقير » ترجّلت نسرين وعبرت إلى الشارع الضيق ، وسط أبواق السيارات .

كان شرطي عجوز يقف بداية الزقاق ينظرها باحتقار . لا تدري لِم تكره الشرطة ؟ وتذكرت ، وهي تدخل ظل الشارع الفرعي أن الصورة التي شاهدتها لغزال تمزقه الكلاب في غرفة حسين ، كانت في دكان حلاق ببعقوبة !

كانت صغيرة ، وحين يطول شعر أخيها ، يصطحبهما الأب معه إلى ذلك المكان . لم تعد الآن تتذكر وجه الحلاق . ما بقي من رمان بعقوبة وبرتقالها . وظلالها أشلاء غزال تطارده الكلاب . إلتفتت إلى الشرطي . وجدته مازال ينظر إليها . دخان السجائر يفر من شفتيه ببطء كلص

يحذر الهرب السريع ، وغابت عن عينيها تماما سيارة حسين .

★ ★ ★

أدار حسين رأسه يتابع نسرين بنظراته حتى اختفت في الزقاق كان اهتمامه ينحصر ، وهو يقصد الطبية إلى الآداب وإضرابها ..

أيترك سعاد وحدها ؟

أين هي الآن ؟

أسئلة عديدة تراوده ، فيختفي عن عينيه صخب السيارات المارّة . توقفت السيارة أمام باب الكلية الطبية . اقشعر جسده للمارة وجه الفراش بطالعه ، وأشجار اليوكانيتوس . أمامه وقت إلى الساعة الخامسة . بإمكانه أن يستفيد من المحاضرات القادمة ، لكن ، كيف تكون عليه الآداب الآن ؟

كيف تكون عليه سعاد ؟

جاءه صوت السائق :

- هذه هي الطبية !

هم أن يفتح الباب ، ثم تراجع ، واستلقى لتسترخي أعصابه . قال :

- أرجعني إلى المعبر !

- معبر الجامعة أم المعبر الشعبي ؟

- لا يهم !

استدارت السيارة ثانية . حدج السائق حسين في المرآة بنظرات مبهمة . قال ليفتح حديثا مع التراكب المبهم :

- أأنت من البصرة ؟

- كلا !

- أنت في جامعة شط العرب ؟

- كلا .. أبحث عن صديق !

- اليوم إضراب !

وبكصته كل الفكر

يا ربي احفر له كبر

وطمّه طول العمر

ضحك بصوت عال . رجع إلى الأغنية الشعبية . قال :

- الشرطة ينامون مع نسائهم بملابسهم .

قرب معبر الجامعة ، ترجّل حسين من السيارة . حدجه السائق بنظرة أقرب إلى الاشتمئزاز ، وكأنه يقول « أنك مجنون » اترجع إلى الطبية ؟ لا مانع ما دامت النقود نقودك !!

وخطا مبتعداً عن القنصلية الانكليزية إلى معبر الجامعة . أوشك المعبر على الحركة ، والعامل يدير العتلة ، والقبطان خلف المقود ، ورافع الحبال يغادر الرصيف . ابتعد المعبر عن الحافة قليلاً ، لكن حسين هرول ، وقفز إلى الداخل . كاد يسقط على ظهره ، وأصوات تطرق أذنيه :

- الله ... الله ... الله ...

بادره خجل ، وزاغت عيناه بين الجموع ...

وفجأة ...

نسي الخجل !

إنها في المعبر . إتجه نحوها . همّت أن ترفع قدميها عن الأرض . كادا يتعانقان لولا العيون التي أحاطت بهما ....

قالت بنبرة تشقّ صوت المحرك :

- حسين ، أذاهب أنت الآن إلى الآداب ؟

- لا بل ذاهب إليك !

- اليوم إضراب !

- لا زلت أحمل تراب كربلاء ، هل أخاف ؟

- لم أعد أخاف منذ أن حكى لي والدي .

تصنّع حسين الاستغراب والبلاهة . قال :

- إضراب ؟

- يقولون يتجمع الطلاب في الجامعة ، ثم يتوجهون إلى المحافظة

- محتمل ألا أجد صديقي ! إنه إنسان لا يتدخل بالسياسة !

- الدولة نار . لمن الاضراب ؟ الله يرزق من يشاء ، أنا صاحب سيارة . أحصل أكثر من راقب المتصرف ، غير المشروبات والبنات ، ليشكر كل منا الله !!

توقّف عن الكلام . أدار في المسجل شريطاً إلتفتت إلى حسين يستعطف تأييده .

- أليس كذلك ؟

تلذّذ لسماع الصوت الأجش ، ولم تعدْ أذناه تتألمان لنبرة البكاء من المغني !

كانت السيارة تقترب من جامع « الفقير ». توقف السائق برهة . أوقف الشريط المسجل . قال حسين :

- لا عليك أنا في عجلة .

- لن نتأخر ، لنر خلق الله !

تجمع رجال .. ووقف الشرطي العجوز وسط الحلقة . كانت إحدى البغايا تتقيأ شبه عارية . يبدو أن إحدى السيارات ألقتها في المكان ، وهي بحالة سكر . ملابسها تناثرت على الرّصيف ، والشرطي يسندها ليتجه إلى وسط الحارة .

صفق السائق ، وواصل حديثه :

- هناك مظاهرات ، وهنا مظاهرات . اللّهم ساعد الشرطة . إنهم لن يخلعوا ملابسهم الخضراء ، ثم ضغط على منبّه السيارة ، وواصل السّير ، وهو يترنّم بأغنية شاعت عن الشرطة .

شرطي وهدومه خضر

إشارات :

البصرة القديمة : كلمة تعني « مدينة البغاء » بالاصطلاح الشعبي .

جامع الفقيري : البصرة القديمة .

العشّار : مركز مدينة البصرة .

الحلّة : مدينة في العراق .

الزيارة : زيارة قبر الحسين .

مقبرة الغري : مقبرة النجف حيث يدفن فيها الموتى من كلّ العراق

الباور هوز : منطقة من مناطق البصرة .

الخورة : منطقة من مناطق البصرة .

تابت نصرة من فسادها في البصرة : مثل بصري على أن المنحرف لا يغيّر طباعه .

الديوانيّة : مدينة يتوقف عندها الذّاهبون إلى النجف وكربلاء .

« بنات نعش » : سبع نجمات يبحثن عن قاتل أبيهن حسب المعتقد الشّعبي .

راية العباس : عِلْم يرمز إلى قطع كفّي العباس في كربلاء .

« شوف .. » : قصيدة شعبية معناها

انظر ابن بلّا يا عبد السلام
ولا تغتر بالمنصب أنت والسلال
ولا تخدعك الرجعية العربية .

قال وكأن رئتيه أوسع من الهواء :

- أتعرفين أنني قرّرت أن أتقدم لخطبتك هذا العام ؟

- راودني شعور أنك ..

وصمت عن الكلام ، ثم أطرقت . قال :

- أعرف أنك كنت متأكدة مني .

وكمن تتذكر شيئاً . قالت :

- لكنني أخطأت !

الهور : أراض منخفضة في العراق يتجمع فيها الماء والقصب .

الشعيبة : قرية صغيرة .

السعد : مكتب نقليات .

الوطن : شارع في البصرة .

« شرطـــــــــــي وهدومه .. » : أهزوجة شعبيّة معناها :

الشرطي يلبس ملابس خضراء
يبعث على التطيّر
نتمنى أن يحفر الله له قبراً
ويدفنه فيه .

الرواية كتبت عام ١٩٧٦